محمد الناصر العجيمي

في الخطاب السّرديّ

نظرية قْريمَاسْ (GREIMAS)

الدار العربية للكتاب



في الخطاب السردي: نظرية قريماس GREIMAS

محمد الناصر العجيمي

الدار العربية للكتاب

تونس

١٩٩١



1

مشكلية الدراسة



تهيّبنا الإقدام على بسط نظرية قريماس السردية وتقحّم فكر هذا المنظّـر لما يحّف بـه مِنْ إشكـال وتعقيـد يجعلان مبـاشرتـه بمثـابـة المجازفـة. وقبل ان نقوم بتبرير عملنـا بدا لنا مفيـداً أن نلم بأسباب الصعوبة التي واجهناها. وقد حصرنا ها في اثنـين:

أوّلا ان قريماس لم يؤلف دراسة تستوعب في نظرة تأليفية جامعة جهازا نظريّا يتيح للدارس مرجعـا ميسور التناول. فنظريته تمتد على مجموعة هامة من الدراسـات المنشورة في مؤلفات مستقلّة أو ضمن مجلات مختصة وهي علاوة على هذا على حـظّ وافر من الثراء والنفاذ بحيث تتطلب مجهودا مضنيـا لتعرّفها وفكّ رموزهـا. وفيما يلي تقديم لأهم دراساته النظرية والتطبيقية:

1 — «البنيـويّـة الـدلاليـة»(1) وهـو مـؤلّف يضم جملـة من الدراسات المتصلة خاصة بالتحليل الدّلالي في المستوى العميق وان حـوى قسما (من صفحة 172 إلى ص221) أفـرد لإعادة النظـر في

---

1) Greimas "sémantique structurale" Paris, Larousse, 1966.

بعض مفاهيم بـروب الوظيفية وصيـاغتها صياغة جـديدة موسـومة بالاختزال والتجريد الرياضيين.

2 ــ «في المعنى»(2) وهو مؤلّف يضم مجمـوعة من الدراسات المنشورة في مجلات مختلفة. ولئن انتظمت هـذه الدراسات في حدود نظريـة قريماس الأساسيـة فهي تبدو غير مترابطة فيما بينهـا بأسباب واضحـة اذ ننتقل من مستـوى في التحليل إلى مستوى آخـر دون أن نهتدي ــ ان لم نكن على معرفة سابقـة بسنن مؤلفها الفكريّة ــ الى نوعية العلاقات القائمة بين هذه المستويات.

3 ــ «العوامل والقـائمون بفعل والصور»(3) ويتنـاول قريماس في هـذه الدراسـة مفاهيـم المصطلحات المذكـورة في العنوان مبينـا مواطن التقائها واختلافها في نظرة تتميز بالنفاذ والتمساك.

4 ــ «مسألـة من مسائل الـدلالة السرديـة: الموضوعـات ذات القيمة»(4). في هـذه الدراسة يعمق قريماس مفهـوم مصطلح كان عـالجه في بحـوث سابقـة وهـو «الموضـوع» (أو الطِّلبة) وعـلاقتـه بالفاعل.

وكان قريماس أعلن في بداية السبعينـات انه يعتزم تأليف كتاب يجمع فيه شتات نظريته المبثـوثة في منشورات متعدّدة في رؤية خطّية

2) Greimas "Du sens - Essais sémiotiques" Paris, Seuil, 1970
3) Greimas "Actants, acteurs, figures" in "sémiotique narrative et textuelle", Paris, Larousse, 1973.
4) "Un problème de sémiotique narrative: les objets de valeur" in "Langages" n° 31, 1973

متسقة إلا أنه لم يَفِ بما تعهّد به ونشر بدله بالاشتراك مع كورتيس معجما(5) يمسح ما يزيد على أربع مائة صفحة ضبط فيه مدلول عدد هام من المصطلحات المنتشرة على امتداد دراسات قريماس النظرية والتطبيقية والموظّفة أداة للتحليل. ويختصّ هذا المعجم بميزتين هما التجزؤ والدائرية. مردّ الصفة الأولى إلى أنه يخضع إلى ما تخضع إليه سائر المؤلّفات المعجمية التقليدية من تنظيم المادة وفق الترتيب الأبجدي ممّا يفضي إلى فصل المفاهيم المنتظمة في سياق نظرّي واحد بعضها عن بعض، إلا أن القارىء سرعان ما يتبين — وهذا ما يفسّر صفة الدائرية— ان بعض المواد يحيل بعضها على بعض، وبعضها يشرح بعضا مما يوحي بانتظامها جميعا في نسق فكرّي متكامل يوميء بقدرة فذّة على التجريد والبناء النظري. وان كانت جوانب عدة من نظريته تحتاج — فيما يصرح به الدارس نفسه في مواطن كثيرة من مؤلفه— إلى مزيد من الضبط والتدقيق وما زال هو وأتباعه يطوّرون أدوات البحث ويقومون بتعديل هذا الجانب تارة وتعميق ذاك تارة أخرى في دراسات لاحقة سنأتي على ذكر بعضها.

وقد شفع قريماس هذه الدراسات ذات المدى التنظيري بدراسات تطبيقية. من أهمها اثنتان: الأولى وعنوانها «دراسة نص لديميزيل»(6) مضمنة في كتاب يحوي مجموعة من الدراسات

---

5) Greimas et Courtès: "sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage" Paris, Hachette, 1979.
6) Greimas " Analyse d'un texte de G. Dumezil" in "Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales"

القائمة على تطبيق الأنموذج العاملي على نصوص علمية وحضارية.

أما الثانية وعنوانها «صديقان» فقد نشرت في مؤلَّف مستقلّ(7). وتقوم كذلك على تطبيق مبادىء النظرية نفسها على أقصوصة من أقصوصات «موبسان» تحمل العنوان المذكور. ومع أن هذه الدراسة ظهرت قبل الدراسة التطبيقيّة السابقة فهي تفوقها أهمية من حيث حجمها، إذ تمتد على ما يقرب من ثلاثمائة صفحة، ومن حيث قيمة التحليل فيها. ذلك انّ صاحبها وظّف فيها أهم مقولاته النظرية ومصطلحاته. وقد جاءت على جانب من التشعّب بحيث يصعب على من لم يكن على حظّ من المعرفة بمفاتيح نظريته وسننه الفكرية أن يفك رموزها ويتتبع منعطفاتها.

لكن مما ييسّر ولوج فكر قريماس ويسهم في فهم مستغلقات نظريته توفّر جملة من الدراسات المتبنية منهجه تنظيرا أو تطبيقا أو المتوخيّة طرقا من التحليل أكثر وضوحا. وتجنّبا لما قد يتطلّبه منّا تقديم هذه الدراسات تقديما نقديا من مادة لا يتّسع لها مجال دراستنا آثرنا الاكتفاء باستعراض أهم عناوينها على أن نعقّب عليها بإشارات مختزلة تهم التشابه والاختلاف بينها:

1 — كورتيس «مدخل إلى الدلالية السردية والبيانية»(8).

---

7) Greimas "Maupassant, La sémiotique du texte, exercices pratiques" Paris, Seuil, 1976.
8) Courtés "Introduction à la sémiotique narrative et discursive" (Préface de Greimas) Paris, seuil, 1973.

2— راستيي «محاولة في الدلالية البيانية»(9).

3— كوكي «العلامية الأدبية مساهمة في تحليل النص دلاليا»(10).

4— مجموعة من الباحثين «علاميات»(11).

5— هينو « رهانات الدلالية»(12).

6— هينو «السردية: الدلالية العامة»(13).

7— جماعة انتيرفيرن «التحليل العلامي للنصوص»(14).

نبدي فيما يلي بعض الملاحظات المتّصلة بهذه الدراسات:

أولا : أنها تتكون من قسمين رئيسيين: قسم نظرّي وقسم تطبيقي مع تفاوت في حجم المادة المدرجة في كل واحد من القسمين.

ثانيا: لئن اتفقت في منهج الدّراسة ومبادئها الأساسية فإن هذا الاتفاق لا يبلغ حد التطابق التام اذ نقف على جوانب اختلاف تخصّ في المقام الأول تحديد مستويات الدراسة. ففيما

---

9) F. Rastier: "Essai de sémiotique discursive", (sous la direction de Greimas), 1973.
10) J.C Coquet "sémiotique littéraire: contribution à l'analyse sémantique du discours", Paris, 1973.
11) "Sémiologiques" Presses universitaires de Lyon, 1976.
12) A. Henault: "Les enjeux de la sémiotique générale", P U F., 1983
13) A. Henault: Narratologie, Sémiotique générale", Paris, P.U.F., 1983.
14) Groupe d'Entrevernes "Analyse sémiotique des textes", Lyon, P.U.L., 1979.

يجعلها بعضهم(15) اثنين منقسمين بدورهما إلى أربعة مكوّنات يجعلها آخرون(16) ثلاثة. مما ينجرّ عنه تباين في تنظيم المفاهيم وتبويبها. ولا شك في ان التباين المعني مردّه في بعض وجوهه إلى أنّ لبعض المصطلحات والمقولات النظرية من الكثافة بحيث يسوغ إدراجها ضمن هذا المستوى أو ذاك. فإن نحن تناولنا على سبيل المثال واحداً من أقلّ المفاهيم إثارة للجدل وهو «الفاعل» الذي يصنّف عند جميع الدارسين ضمن المحور السردّي في المستوى السطحّي باعتباره وحدة تركيبية نحويّة لاحظنا مع ذلك انه لا يكتسب صفته تلك إلا بتحميله دلالة الفاعلية الكامنة في المستوى العميق.

فإن انتقلنا إلى المكوّن التصويري(17) ازدادت المسألة تعقّدا والتباسا وازداد التّردد في تصنيف مفهوم معين في هذا المستوى أو ذاك مما يحمل على الاعتقاد ان تقسيم الدراسة مراتب يكتسي مدى «اجرائيا»(18) وظيفيّا أكثر من استجابته لحقائق موضوعية قارة وهذا ما نبّهت إليه الدارسة بقولها: «ينبغي التذكير بأن البناء المشهود للمستويات الدلالية ليس عقيدة بقدر ما هو أداة للتحليل. ولا يستقيم ثابتا في موضعه إلا بصلاحيته وبمدى ما

---

15) بوجْه خاص جماعة «أنتريفبرن»

16) بوجه خاص «هينو» و«كورتيس»

17) Composant discursif.

18) Opératoire.

يقدمه من خدمات»(19).

ثالثا: لئن استخدم الـدارسون المصطلحات نفسها —إجمالا— فإن منهـم من يحمّل بعضهـا دلالات تختلف — وإن في حـدود ضئيلـة عما يحمّله اياها غيرهم. ولنـا في الاختلاف في ضبط مفهـوم «المؤتي»(20) شـاهد على ذلك. وسنعـرض لبعض وجـوه ذلك في الإبّان.

ثـاني صعوبـة تعترض الدارس العـربي عنـد إقبالـه على نظريـة قريماس تتمثّل في أنّه — الدارس— يواجه حشدا من المصطلحات بـالغ الـوفرة على نحْـوٍ لا نكـاد نجـد لـه نظيرا في المناهج النقـديـة الحديثة. وفي ظننا أن هذه الظاهـرة — ظاهرة وفرة المصطلحات— لا تـدل، كما يتبادر إلى الـذهن، على تحذلق علمي بقدر مـا تعكس صرامة المنهج الذي يـريد اصحابه أن يأخذوا أنفسهم به. وممـا يزيد مهمتنا عناء أن هذه النظريـة لم تصادف من نفوس الدارسين العرب هوى فلم يتـوفّر على دراستهـا وتقديمهـا إلا عدد محدود منهم حتى ليداخلنـا شعور بأننا نطرق أرضـاً بكراً. وهذا أهم ما أتيح الـوقوف عليه من دراسات عربية اهتمت بموضـوع بحثنا أو موصولة به على نحو أو آخر:

1 — سمير المرزوقي «مـدخل إلى نظـرية القصـة»(21) وهي

---

19) هينو (1983) ص 117.

20) Le destinateur.

21) الدار التونسية للنشر من ص 111 إلى ص142.

دراسة تتميز بالدقة وان حدّ التوجه الممعن في التعليمية من أهميتها العلمية بالنسبة إلى من يروم تبسّطا نسبيا في النظرية.

2— أمينـة رشيـد «السيميـوطيقـا: مفـاهيم وأبعـاد» (22) تستعرض الدراسـة في هذا الفصل تاريخ العلاميـة مضمّنة مبادىء قريماس النظريـة. غير أن الرغبة في التوسع والإحاطـة بعدة جوانب غير متجانسة أوقعتها في الخلط والتفكك.

3— سامية أسعد «سيميولـوجيا المسرح» (23) تعالج الدارسة موضوعا ليس لها به معرفة ولا عليه سيطرة فجاء خليطا من المفاهيم المتنافرة والمشوّهة.

4— هـدى وصفي «تحليل سيمـويـولـوجي لـلأستـاذ»(24) يحوي التحليل التطبيقي بعض المفـاهيم الصحيحـة غير أنها وردت في غير تنظيم وفي نظرة لا تخلو من سطحية.

5— هدى وصفي «حـداثة الميلودارما»(25) حاولـت الدراسة التعمق في منهج قريماس فإذا بها تسقط في الفوضى والغموض.

6— ماري زيادة «النص المسرحي والحداثة»(26) لا نتردد في وصف هذه الدراسة «الدلالية» بالتمحل و«الهرطقة» الفكرية.

---

22) مجلة «فصول» المجلد الأول العدد الثالث أفريل 1981 ص 41-55

23) مجلة «فصول» المجلد الأول العدد الثالث أفريل ص 67-79.

24) المرجع نفسه ص 261 إلى 267.

25) مجلة «فصول» المجلد الرابع سبتمبر 84 ص 123-130.

26) الفكر العربي المعاصر عدد 44-45 1987 ص 62-, 73

ما الدافع اذن والحالة هذه أن نتجشّم العناء ونتقحّم وَحَلَ الدلالة وشعابها؟ تسلمنا الإجابة عن هذا السؤال المبسوط إلى تبرير عملنا. ولنشر في هذا الصدد إلى أن أهم سبب حدا بنا إلى تقديم نظرية قريماس الموسومة بالأنموذج العاملي مردّه إلى ما حظيت به من انتشار واسع في الغرب لما تتميز به من قدرة على تفجير الموضوع المدروس ووصف آلية توليد المعنى مما أهاب بالدارسة هينو(27) إلى القول بأن مثل ما قامت به هذه النظرية ومن خلالها العلامية بوجه عام في استقراء الدلالة مثل ما أحدثته ثورة «كوبرنيك» في قيس الزمن. ومما يدل على طاقتها الوظيفية أن بعض المصطلحات المنتظمة في صلبها والمستعملة أداة للتحليل أضحت مألوفة الاستعمال عند الدارسين على اختلاف اتجاهاتهم(28). إنّنا ندرك تماما ما يواجه الإقبال على النظريات الحديثة من اعتراض بدعوى أننا نمتح من معين غير معيننا ونجهد في احتذاء انجازات الغير المستحدثة — ولسنا ندرك السبب في أن هذا الضرب من النقد لا يوجه إلى طالبي صنوف المعرفة العلمية الأخرى لمجرد المحاكاة والتقليد.فغنيّ عن القول ان العلم ضالة الباحث متى وجد فيه أداة صالحة لإنْطَاقِ الموضوع المدروس ومعالجته بنجاعة. البحث في جوهره مجازفة واعية ومنظمة وارتياد

---

(27) A. Henault "Les enjeux de la sémiotique" P.U.F, 1979 p.89.

28) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الفعل الإقناعي والفعل التأويلي والقطب الدلال (isotopie).

للمجاهل بأدوات أبدا متجددة. ثـم إن المهمّ في تعرّف هذه المناهج لا يكمن في تطبيقهـا تطبيقا آليـا — وان أبيح ذلك في مـراحل أولى بغيـة تمثّلها— بقـدر ما يكمـن في استيعاب طـرقها في «الشكلنـة» فنثقف أدوات البحث عندنا ونقوّمهـا ونهيّء بذلك السبيل إلى أدبنا حتى يستشرف آفاقا جديدة.

الدلالـة تحيط بنا وتخترقنا نـؤديها وتفصح بنا ومن خـلالنا وربما بالـرغم منّـا. نلمسها كثيفة خثنـة لكننا نكتشـف أنها سراب خادع وبـرق خلّب. تبدو حـاضرة وغـائبة في آن سهلـة عصية مستسلمـة متمـردة، نحسب أننـا وقفنـا على حـدودهـا ومـا إن نعكف عليهـا لاستيعـابها والنفاذ إلى بـؤرتها حتى تنأى عنـا متأبّيـة عصيّة رافضـة الانقياد وتسليم مفاتيحها إلينا.

ومن العسف ان نوصد الأبـواب أمام محاولات جادّة لفكّ سننها واخراجهـا من عقالها. وفي نهاية الأمـر لا تعدو نظريـة قريماس أنها محاولة ضمن المحاولات الكثيرة في هذا النطاق. ومن يزعـم أنه أتيح له النفـاذ إلى بؤرة المعنى وكشف مـا تخفيه وتحتـويه من رمـوز «علبة بوندور»(29) هذه التي هي اللغة؟!

نخلص في خـاتمة هـذا التقـديم إلى تحديـد الأسس التي ينبني عليها عملنا ونجملها فيما يلي:

أولا: أننا سنتـوخّى الـوضوح بقـدر وسعنا ونلتـزم في الآن ذاته

---

29) Boîte de Pandore

الأمانة العلمية. وإن كنا ندرك عسر التوفيق بين ما تتطلبه الغاية التعليمية من تبسيط وما يقتضيه البحث العلمي من دقة وصرامة. ومما يزيد الأمر عسرا أن النظرية المعنية بالدرس ما زالت في طور الاكتمال. حسبنا شاهدا على ذلك ان صاحبها وأتباعه يصرحون في مواطن عدة من كتاباتهم التنظيرية أن هذا الجانب أو ذاك في حاجة إلى تعديل أو تعميق.

ثانيا: أننا لا نتعرض في تقديمنا النظرية إلا إلى ما حصل بشأنه إجماع أو شبه إجماع معرضين —إلا عندما تقتضي الحاجة— عن الخوض في الجدل المتّصل ببعض الجزئيات.

ثالثا: أننا ننطلق من الأقل تشعّبا واثارة للقضايا إلى الأكثر اشكالية والأوغل مدى في التجريد. وأخذا بهذا المبدإ آثرنا —خلافا لبعض المنظرين للمنهج المعنيّ ببحثنا— ادراج الدراسة المتصلة با لمستوى العميق في القسم الأخير من البحث لما يثيره موضوع البنية الدلالية العميقة من قضايا بعضها موصول با لمنطق (بل في بعض الأحيان بالرياضيات).

رابعا: أننا واجهنا القدر الكبير من المصطلحات بمجهود فرديّ أساسا وإن استعنّا في حالات نادرة بما عرضه علينا بعض الزملاء من ترجمات. لذا نقرّ بأنّ عددا من المصطلحات المترجمة يحتاج إلى اعادة نظر وتعديل.



2

علم الدّلالة



يصعب التعريف بعلم الدلالة(30) في مجال دراستنا المحدود تعريفاً وافياً ملمّا بمختلف جوانبها وتفرّعاتها المتشعّبة. لذا سنقتصر

---

30) يطلق على العلم نفسه تسمية «العلاميّة» ترجمة للمصطلح الغربي Sémiologie أو Sémiotique . والاختلاف في المصطلح لم يكن في بداية نشأة العلم المعني بريئا يعود إلى أسباب تخصّ مجال الدراسة الدلالية وحدودها. فهل يقتصر البحث على المجال اللّغوي مقصيا بحسم مظاهر النشاط الإنساني الأخرى أم أنّه يهمّ جميع المجالات الدالة ليشمل إضافة إلى النتاج الأدبي الأساطير والنظام الاجتماعي وما يرتبط به من مظاهر القرابة والصلات الاجتماعية والعلامات الثقافية العامة؟ وهل تطلق التسمية المذكورة على الموضوع المعنيّ بالدراسة أم على الدراسة ذاتها وطريقة تناولها للموضوع؟ وبالنظر إلى دقّة المسألة وما يكتنفها من لبس آثرنا عدم الخوض فيها غير أنّه يحسن الإشارة إلى أن الحدود الفاصلة في البداية بين الاستعمالين آخذة في الانحسار تدريجيًا. ولا أدلّ على ذلك من وقوفنا في كثير من الدراسات الدلالية على هذا الاستعمال وذاك دون تمييز. يمكن الاستعانة بالدراسات التالية لإضاءة بعض جوانب الموضوع:

- Mounin "introduction à la sémiologie" Paris, éd. Minuit, 1970.
- Pietro "La Sémiologie" in "le langage", (Direction Martinet),, Encyclopédie la pléiade, 1973, p:93-144.
- Barthes "Eléments de Sémiologie", dans (communications) N° 4, 1964.

على تعرّف خطوطها الكبرى أصولا ومنهجا بالقدر الذي يسمح لنا بوضع نظرية قريماس في اطارها المعرفيّ العام.

1 —المنطلق والحدود:

أسّس علم الدلالة منذ ما يزيد على عقدين ردا على الألسنيين الذين يركزون في دراساتهم اللغوية على الدال مقصين المدلول من مجال اهتمامهم باعتباره غير قابل للتقسيم وفق الوحدات المميزة(31). وسبق ان آخذ جاكبسون أصحاب الاتجاه الألسني هذا بقوله: «لا يخلو موقف هؤلاء الذين يقولون بانتفاء المعنى من أحد أمرين: إما أنهم يفقهون ما يقولون وعندئذ يكتسب قولهم بحكم ذلك معنى أوأنهم لا يفقهون ما يقولون ومن ثمّ يبطل كل معنى من كلامهم»(32).

ويجوز ان نوجه الرد من منطلق آخر وهو أن قولهم المذكور ينتظمَ في سياق «فعل كلام»(33) اذ يقصد به التأثير في المتقبّلين واقناعهم بوجهة نظر معينة مما يستتبع تضاربا في موقفهم، اذ كيف يستقيم الحكم بانتفاء المعنى من كلام يقصد به التأثير والاقناع؟

هكذا نخلص إلى تحديد علم الدلالة من حيث هو «مشروع»

---

31) Unités discrètes.
31) R. Jakobson "Essais de linguistique générale", Paris, Minuit, 1963, p38
33) Acte de parole.

يرمي من وجهـة «هينو» إلى «تأسيس وعي بنيوي للاستقـراء الدلالي ويعني ذلك وصف القـواعد العامـة لانتاج المعنى الإنسـانيّ وصفا دقيقا»(34).

غير أن مسألـة مـا زالـت قـائمـة لم تحلّ. وتخصّ ضبط الحدود الفاصلـة بينها وبين العلـوم الإنسانيـة الأخرى ومنهـا خاصـة علم الاجتماع والتحليل النفسي والمنطق اذ إنّ بعـض المختصّين في هــذه الحقول المعرفية يُصَنَّفُون في عداد علماء الدلالة(35).

يقودنا مظهـر التوالج هذا إلى بسط التساؤلات التاليـة: ما الذي يوحّد بين هـذه الاتجاهات جميعا وما الـذي يفرق بينها؟ وهل علم الـدلالة بمنـزلـة الجذع المشترك الذي يأخـذ منـه كل فرع من فـروع المعرفة ما يحتاجه للبحث المعنيّ به؟ أم أن الحديث عن علم الدلالة من قبيل التجـوّز والتخمين وأن مـا يفــرّق بين المعـارف الموصـولـة —افتراضـا— به أكثـر مما يجمع بينهـا؟ والأدْعَى— تبعا لـذلك— أن نتحدث عن علوم دلالية مختلفـة لا عن علم واحد؟ لا نجرؤ على المجـازفة بـالإجابـة عن هذه التسـاؤلات في حدود هـذه الدراسـة الضيقة. كفـانا أن نشير إلى أن صنوف المعـرفة المنتسبة إلى مـا يعرف

---

34) هينو (1979) ص11.

35) أذكـر على سبيل المثال: لاكـون J. Lacan في علم التحليل النفساني ولوتمان Lotman في علم الاجتماع والعـلامـات الثقـافية العـامـة، وميتـز Metz في السينما والصور المتحركـة ، وكلـين Klein في المنطق، وبافيس Pavis في المسرح، ومولسMoles في الصورة ووسائل الاعلام.

بعلم الدلالة تتقاطع في مواطن عدّة ويؤثّر بعضها في بعض على نحو يؤذن بالتقائها بعد أمد يقصر أو يطول في مجرى واحد يلمّ شتاتها ويؤلف بينها. وكتاب «ايكو» الخطير الموسوم ب «الأثر المنفتح»(36) يفتح المجال — على قدم عهده— لحلول عهد تلتقي فيه حقول — تعدّ إلى الآن منتمية إلى آفاق معرفية متباينة— في رؤية موحدة.

2— المنهج:

من الواضح أن المادة المتَّخذة موضوعا للدراسة تملي على الدارس المنهج الملائم لتحليلها مما يبيح الحديث عن أساليب متعدّدة في الاستقراء الدلالّي. ومع ذلك إن نحن دقّقنا النظر في هذه الأساليب لفتنا انتباهنا وجود ثوابت فيها ومواطن التقاء قارة. مردّ هذه الظاهرة إلى ما بين الأساليب المذكورة ومناهج التحليل الألسنيّ من وشائج وأسباب اتصال. ولا يتعارض هذا مع ما كنّا ألمعنا إليه في موطن سابق من أن علم الدلالة جاء ردا على الالسنية. ذلك ان انفصاله عنها في مستوى الهدف المنشود تحقيقه لم يؤل إلى قطيعة منهجية. ولنحاول -قبل ان نقوم برصد أهم أسباب الاتفاق- أن نجيب عن السؤال التالي :أي العلمين الأصل وأيهما الفرع؟

يؤكد سوسور أن الألسنية ليست سوى فرع من علم العلامات العام مثلها في ذلك مثل سائر وسائل التعبير الأخرى اذ يصرّح قائلا: «تقوم اللغة على نظام من العلامات الدالة وهي بحكم ذلك

U. Eco "l'oeuvre ouverte", trad. Fr. 1972 (36

شبيهة بالكتـابة ورموز البكم والصم والطقوس الرمزيـة والعلامات العسكـرية وغيرهـا. غايـة مـا تمتاز بـه على أنظمة التعبير هـذه أنها أكملهـا وأرقـاهـا.. ومن الجائز أن نتصـور علما يعنى بـدراسـة العـلامـات ووظيفتهـا في صلب المجتمع. نفـرد لهذا العلم تسميـة «علم العلامات»(37).

بينما يتبنّى بارت وجهة نظر مخالفة معتبرا علم العلامات المنشود تأسيسه فـرعا من علم الألسنيـة. وفي هذا الصدد يقـول: «الألسنية ليست فرعـا متميزا من فروع علـم العلامات العـام بل العكس هو الصحيح. فما هذا العلم الذي يتّخذ من الوحدات الدلالية الكبرى موضـوعا لـدراسته سـوى تابع لـلألسنية»(38). يستـوقفنا في نصّ بارت قـوله ان العلامية تتخـذ من الوحدات الدلاليـة الكبرى مادة لدراستهـا اذ هو يعيّن بذلك —وان ضمنا— مـوطن الاختلاف بين العلمين في الأسس والغـايـات. ففيها تـرمـي الألسنيـة إلى عـزل الـوحـدات الدالـة الصغـرى المميّـزة انطـلاقا من الجملـة تستـوي الـدراسـة الدلاليـة على صعيـد أرفع (دون أن نحمّل الكلمـة معنى تقييميـا)مستهدفـة استقراء النظـام الدلالي استنـادا إلى وحدة أكثـر اتّسـاعا من الجملـة، وهي الخطاب الـذي لا نستخلص منه فـائدة بمجرد ضمّ بعض الوحدات الدلاليـة الصغرى المكوّنة له إلى بعض إنما نـدركه جملـة وفي كلّيتـه. وهـو ما يطلق عليـه بنفنيست تسميـة

(37 "Cours de linguistique générale 1916", Paris, Payot, 1972

(38 "Communications" N° 4 - 1966 p 2

«المعنى المقصود الشامل»(39) فقد لا تعدو قصيدة مكوّنة من عدة عشرات من الأبيات انها تنويع لمعنى بسيط من قبيل «اني أحب». وقد تتلخّص قصة ممتدة على مئات من الصفحات في انها تصور استحالة وضعية شخصية من حال إلى حال.

وظيفة «علم الدلالة» تكمن بالتحديد في ابراز حركية الدلالة واعادة بنائها. سبيلها إلى ذلك تعيين الوحدات الدالة وتنظيمها وفق «سلّم تراتبيّ» متكامل البناء. يسلمنا هذا إلى تعيين الجوامع المنهجية القائمة بين «علم الدلالة» وعلم اللسان مؤكدين أن أهم مبدإ أفادته الدلالية من الألسنية القول بأن المعنى شكل وليس مادة. ومن الجلّي أن المبدأ المذكور يناقض الاتجاه التقليدي السّائد في فهم الدلالة والقائم على اعتبارها مادة مستقلة بذاتها وان وظيفة اللغة لا تعدو أنها رداء خارجيّ يكسو الفكرة ويعكسها بأمانة وشفافية. وأظهر الشواهد الدالة على ذلك ما يطالعنا في دراسة النصوص في المرحلة الثانية من التعليم الثانوّي اذ تشفع هذه النصوص سواء أكانت حضارية أم أدبية، نثرية أم شعرية، مسرحية أم قصصية، بضرب واحد من الأسئلة يتمثل في استخراج الفكرة المضمّنة في النص والأسباب الداعية إلى التعبير عن هذا الموقف أو ذاك(40). النتيجة المنطقية الحاصلة من هذا الضرب من الفهم

---

39) "L'intenté" Benveniste "sémiologie de la langue", in "Problèmes de linguistique générale II", Gallimard,1974, p.43 à 67.

40) نسوق على سبيل المثال ما يطالعنا من أسئلة تشفع بها قصيدة للمعري: «كيف يرى الشاعر امتزاج الأجناس والمعتقدات؟ وما تعليقه على هذا الامتزاج؟ وهل في هذا الامتزاج حكمة؟ وهل هي نفس الحكمة التي يراها المعرّي؟» الكتاب المدرسي الإمتاع ص129.

اكتساب التلاميذ سنّة في التعليق على ملفوظ أدبي يجسّدها مادرجنا على سماعه على لسانهم: «أراد الكاتب ان يقول..». والحال ان الدراسات الألسنية الحديثة أثبتت منذ عقود كثيرة أن اللغة ليست انعكاسا آليا للواقع أو ترجيعا موضوعيا له انما هي تقطيع له. تقطيعا خاصا وتأويله تأويلاً يختلف باختلاف التجارب ونوعية العلاقات القائمة بين المجموعات البشرية والمحيط الذي تعيش فيه. وللاستدلال على هذا الاختلاف في تأويل الواقع وتقطيعه يسوق الألسنيون مثالا أضحى تقليديا بحكم وضوح دلالته، هو اختلاف المجموعات البشرية في تعيين الألوان ورسم الفواصل بينها. واذا استقام هذا صحيحا بالنسبة إلى المحسوسات فمن الأدعى ان ينطبق على المجردات. ولا أدل على ذلك ممّا يواجهه المترجم من صعوبة في العثور على نظير العبارة أو مجموعة العبارات المراد تأديتها من اللغة المنقول منها إلى اللغة المنقول إليها.

الفرضية الأولى التي تنتهي الدلالية إلى اقرارها هي أن الدلالة مثلها مثل اللغة شكل وليست مادة (41) ماثلة بالقوة بما لمستطاع الاهتداء اليها والتوفّق إلى استخراجها بمجرد القيام بفعل تأويليّ. انما غاية ما نحصل عليه نتيجة دراسة الشكل «أصداء دلالية»(42).

---

41) Substance.

42) Effet de sens.

وإذا سلّمنا بالفرضيّة السابقة قادنا منطق التحليل إلى التسليم بالفرضيّة التابعة لها والمتفرعة منها. وهي أن الدلالة خاضعة —قياسا على اللغة كذلك— إلى نظام. ويفترض ذلك انها مكونة من وحدات تنتظم بينها علاقات تقابل أو اختلاف فلا يتاح فهم إحدى هذه الوحدات بمعزل عن الوحدات الأخرى وبدون معرفة نظم صلاتها بها.

من ناحية أخرى لمّا كان علماء الدلالة يطمحون إلى إرساء دراساتهم على قواعد علمية نسجا على منوال سائر المعارف ذات الاتجاه العلمي وجب أن يأخذوا أنفسهم بالصرامة المنهجية.

ومما يقتضيه المنهج العلمي التزام مبدإ الإفادة(43) في جميع مستويات الدراسة بدءا بضبط المدوّنة. فمن المفترض أن تحتوي المواد المتخذة موضوعا للدراسة خصائص مشتركة جامعة حتى يتاح للدارس بلوغ تصورات عامة في مرحلة أولى تليها مراحل يتطرق فيها الدارس إلى تحديد الفوارق بين بعض المواد وبعض وصولا إلى ضبط خاصيات كل جنس من الأجناس المدروسة. فمن الموضوعات المعنية بالدراسة الدلالية السرد الذي يعدّ مقوّما من مقوّمات الحياة الاجتماعية عند جميع الشعوب تقريبا. ولما كانت ظاهرة القصّ تسلك — عند مختلف الشعوب وفي مختلف العصور— قنوات كثيرة وتكتسي أشكالا متعدّدة من الحكاية

(43 Pertinence.

المرويّة شفويّا إلى الأقصوصة المكتوبة، إلى القصة، إلى المسرح، إلى السينما، إلى الصور المتحركة... وجب بعد القيام في مرحلة أولى بعملية استقراء نؤسّس بمقتضاها المقومات العامة التي تنبني عليها ظاهرة السرد —حصر الفروقات النوعية تدريجيا— بين جنس من أجناس السرد وجنس آخر. القاعدة في كل ذلك تنظيم المادة وفق مستويات يختصّ كل واحد منها باستقراء جانب من جوانب الدلالة.

وقد لخّص قريماس التأسيس المنهجي في علم الدلالة بقوله: «تقوم الدراسة الدلالية على مبدأين رئيسيين هما أولا الاستقراء الذي يرمي إلى الإحاطة بالواقع الموصوف (والمقصود المادة المدروسة) فتكون القواعد المستخرجة على جانب من الشمول بحيث تنطبق على القسم الأوفر من هذا الواقع. ثانيا التحليل الذي يقتضي الوفاء للمثال النموذجي المنسحب على مكوّنات المدونة. هذا الضرب من التصوّر الوصفي القائم على محاولة التوفيق بين الجزئي والعام يولّد الشعور بالإحباط لولا أنه حظّ الوصف العلمي المشترك وقدره»(44).

وجماع القول أن نظرية قريماس تستمدّ أصولها المعرفية من الدلالية التى تهتم في المقام الأول باستقراء الدلالة انطلاقا من الظروف الحافة بانتاجها. ووسيلتها في ذلك تفجير الخطاب وتفكيك الوحدات المكوّنة له ثم اعادة بنائها وفق جهاز نظريّ متسق التأليف.

---

44) البنيوية الدلالية Sémantique structurale, p.68.

ما تحاول الدلالية الإجابة عنه هو السؤال التالي: كيف تصبح الدلالة في حكم الإمكان متجلية في شتى مظاهر الإبداع الناتجة عن ذوات واعية. وما هي —تبعا لذلك— الأنظمة والقواعد المتحكّمة فيها والمؤسِّسة لها؟ فليس المقصود بعملية الدرس الوقوف على دلالة الإنتاج الوحيدة أو اكتشاف معان طريفة لا يتعداها ذلك الإنتاج إلى سواها. كما لا يعنى الدارس مباشرة ببيئة المؤلف وبالظروف المادية الحافة بعملية الإبداع أو بمقاصد المؤلف وبالدوافع الخفية أو المعلنة خارج الإنتاج المدروس والمؤسّسة للخلق. فهذه موضوعات لا يهتم بها الدارس في حدّ ذاتها ولا تنصرف عنايته إليها. وإن فعل ففي حدود ضيّقة وبمقدار ما يحتاجه إنطاق النص. وبوجه عام لا يرمي الدارس إلى استقراء مضمون الانتاج أو تعرّف هوية المؤلف من خلاله بقدر ما يرمي إلى انتاج الدلالة وتوليدها استنادا إلى نظام الوحدات المكوّنة له.

إن أهمّ ما تنبني عليه الدراسة الدلالية أنها «إنيّة» أي أنها تلتزم النص وتتقيّد به. ذلك أن الغاية المستهدفة من الدراسة هي —كما آلمعنا— إبراز الية النص في خلق المعنى وتبليغ صداه. والسبيل إلى ذلك كشف شبكة العلاقات القائمة في صلب النص وفنون تأليف الوحدات الدالة. وهكذا يتّضح ما لهذا النمط من الدراسات من وشائج وأسباب اتصال بالألسنية الحديثة التي تستند — ضمن ما تستند إليه— إلى مبدإ أقرته على امتداد تاريخها الحديث مفاده أن الأصداء الدلالية هي حصيلة الاختلافات والتقابلات القائمة بين الدوال.

آن لنا أن نتعرف على الوحدات القابلة للانضمام إلى شبكة العلاقات المولّدة للمعنى. وتصنّف هذه الوحدات وفق مراتب ومستويات يختص كل واحد منها بأسلوب نوعيّ في الوصف واستقراء الدلالة. ولتعيين المستويات والمراتب المذكورة أهميّة خاصة إذ يهيء الوقوف على حركة انتاج المعنى وتتبع مراحلها على نحو تدرّجي شبيه ببناء هرميّ مكتمل.

تنتظم الدراسة في مستويين:

1) مستوى سطحي ينشعب بدوره إلى مكوّنين:

- مكوّن سردي ويقوم أساسا على تتبّع سلسلة التغييرات الطارئة على حالة الفواعل.
- ومكوّن تصويريّ (أو بيانيّ) ومجاله استخراج الأنظمة الصورية المبثوثة على نسيج النص ومساحته.

2) ومستوى عميق ويختصّ بدراسة البنية العميقة استناداً إلى نظام الوحدات المعنوية الصغرى(45).

---

45) من المعلوم أنّ قريماس استلهم مستويات نظامه الدراسيّ من همسليف الذي عمد إلى تفريع كل وحدة من الثنائية السوسورية القائمة على الدال والمدلول إلى وحدتين اثنتين جاعلاً مستويات الدراسة أربعة يختص كل واحد منها بدراسة فرع لغويّ معيّن:

forme الشكل :
- شكل: الفونولوجيا (أو علم الصوائم)
- مضمون: علم الأصوات

substance المضمون :
- شكل: التركيب الوظيفي (نحو) Syntaxe
- مضمون: الدلالـــة.





المستوى السّطحي

أ ــ المكــوّن السّردي(46):

1 ــ التعريف بالسّردية (47):

يُحِلّ قـريماس العملية السرديـة في مـرتبـة «نظام حسـابيّ»(48) مضيفا إلى ذلك قـوله: «تقـوم السرديّة على مجمـوعة من الملفـوظات المتتابعة والمُوظَّفـة المستندات(49) فيها لتشاكـل ــألسنيّا ــ جملة من التصرفات الهادفة إلى تحقيق مشروع»(50). هكـذا يعدّ الخطاب السردي مشروعا منظما وفق الغـايات القصوى المقصود بلـوغها. وما يشير إليه قـريماس من أنـه يكتسي طابعا «حسـابيّا» يـومىء بـوجود عمليـات دلالية كـامنة في المسـتوى العميق بصرف النظر عن مـادّة

46) Composant narratif.
47) Narrativité.
48) Algorithme.
49) Prédicat.
50) قريماس (1966)، ص, 252

التعبير أو المظهـر الخارجي الذي يتشّكل فيـه السرد. يوضّح الـرسم البسيط التالي كيفية انتظام البنية السردية العميقة.

أ (البداية): ← ب —(النهاية)

← لا —أ— (المشـاريع السردية الجزئيـة المفضية إلى المرحلة النهائية).

ويـؤكد «كـوكي» هذا المظهـر عندمـا يقول نقـلا عن كلوديل: «مـا نسميّه حكاية ليس قائما على تجميع عدد من الصور كيفما اتفق، إنما هـو بسط متدرّج — بـواسطـة الأشياء التـي ما إن تخرج من حـوزة المكـــان والـــزمـــان حتـى تكفّ عن الانتماء إليهـــا— لنظـــام وتأليف»(51).

ونقضي الدراسـة في مرحلة من مراحلهـا فكّ سنن السرد بإعادة بناء مجمـوعة العمليات المعنيـة. من ثم نشأ بناء نحـوّي على جانب من التعقيد وهـو موضـوع دراسة السردية المولّـدة بدورهـا من البنية العميقة والمكيَّفة بها.

ما يبرّر ارساء قواعد النحو السردي هـو وجود آليات ثابتة تحكم التحـوّلات المتنـوعـة المتجلية في انماط السرد المعـروفـة. تقـوم هـذه الآليات على عـدد محدود من الطـاقات الـدافعة المنتظمـة في أنسقة

---

51) كوكي Coquet (1973)، ص 153.

معينـة —سنأتي على تحليلهـا في مواضع لاحقـة— وبها اسم جـامع هو «العوامل»(52).

يقدّم الخطـاب السردي في سطحه عددا من الكائنـات الحيّة أو غير الحيّـة مكسبا ايـاهـا تدريجيـا جملـة من المقـوّمات. هـذه وتلك كلتـاهما نسميّـان «معـانميّـة»(53) غير أنهما تختلفـان من حيث وظيفتهما. ففيهـا تعتبر الأولى «وحـدات مميّـزة»(54) منتظمـة في صنف «العوامل»، وتعدّ الثانية تـابعة لها موصولة بها(55)، وتسمى «مسندات» .وتنقسم هذه بدورها قسمين تابعين للثنائية:

متحرّك /ثابـت. المتحرك يحدد منها الـوظائف فيما يعين الثـابت منهـا الأوصـاف(56) .وإن اثير في هـذا الصـدد مـوضـوع الحدود الفاصلة بين الصنفين، اذ كثيرا مـا تلتبس الحدود وتتداخل الفواصل، فلا نعرف إلى أي حدّ تنتهي الوظيفة ويبدأ الوصف أو العكس.

وإذا أمعنـا النظر في العـلاقـة بين كلتـا الوحـدتين الـوظيفيتين الرئيسيتين، لاحظنا أن العـوامل تكتسب معناها بـواسطة المسندات التي تتسـاوق على امتداد الخطـاب تساوقـاً رأسياً معيّنـة الوحـدات الأولى محدّدة مداهـا الدلالي. ففي بـداية الخطـاب لا نتعدّى هـويّة

---

52) Actants.

53) semème.

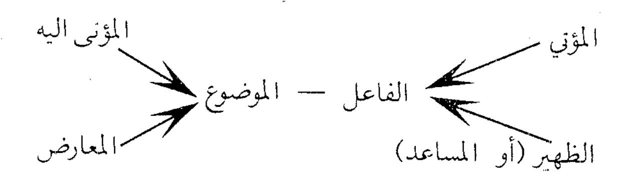
54) Unités discrètes.

55) intégrés.

56) fonction / qualification.

«البطل» التسمية. ثم يكتسب تدريجيا أوصافا ووظائف حتى إذا شارف الخطاب النهاية استوت الشخصية محددة الهوية واضحة المعالم.

لكن الوحدات المميّزة تكتسب كذلك معناها بعلاقات بعضها ببعض في المحور التوزيعيّ. والدراسة المختصة بتحديد هذه العلاقات هي التي نطلق عليها «الأنموذج العالمي». وسنتولّى بسطه من حيث هو نظام خاضع لعلاقات قارة بين العوامل ومن حيث هو صيرورة قائمة على تحوّلات متتالية. ذلك أن السرد ينبني على التراوح بين الاستقرار والحركة والثبات والتحوّل في آن. فـ«مضمون الأفعال يتغير باستمرار والقائمون بالفعل يتغيرون كذلك، لكن الملفوظ — العرض(57) يظل ثابتا. اذ ان الاستمرار يَضْمَنُهُ توزيعُ الأدوار مرة واحدة»(58). يتشكّل النظام العاملي جملة على نحو ما يوضحه الرسم البياني التالي:



L'énoncé-spectacle (57

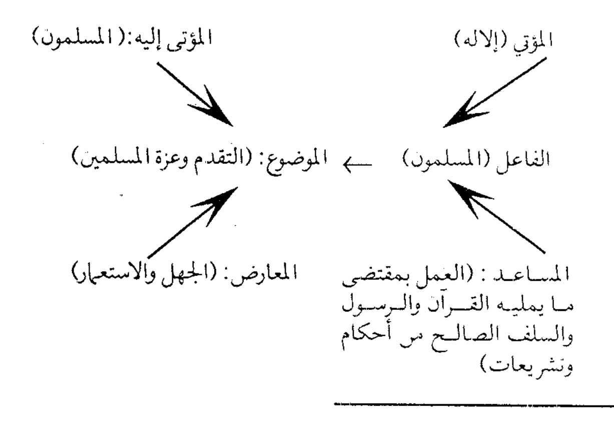
58) قريماس (1966)، ص173.

وتجسيدا لهذا المثال التجريدي نسوق الملفوظ التالي:

أنفذ ملك الأرانب فيروز لاسترجاع العين من الفيلة(59).

فالمؤتي هو الملك، والفاعل هو فيروز، والموضوع يقوم على استرجاع العين، والمؤتى إليه هو مجموعة الأرانب، والمعارض (أو الفاعل النقيض في هذا السياق) هو الفيلة. أما المساعد فسيكون، وفق ما نفيده ملابسات الفعل فيما بعد- ضوء القمر وتسلّق الجبل.

بالنسبة إلى الخطاب الإصلاحي الديني في نهاية القرن التاسع عشر والمجسّد في كتابات عبد الرحمان الكواكبي ومحمد كرد علي والأفغاني ومحمد عبده وغيرهم يتلخص في الأنموذج التجريدي التالي:



59) ابتداء من الآن نستمد أمثلتنا من نصّ «الأرانب والفيلة» المقتطف من «كليلة ودمنة» تونس، دار القدس، ص247.

2 — النموذج العاملي من حيث هو نظام ثابت:

يـرتكـز النموذج العـاملي على ثـلاثـة أزواج من العـوامل هي: المؤتي/ المؤتى إليه والفـاعل/ الموضوع والمسـاعد/ المعارض. وتنتظم بين هذه العوامل جميعا علاقاتٌ سنحاول تحديدها في حال ثباتها.

● الفاعل والموضوع (أو الطَّلِبة):(60)

تعدّ العلاقة بين الفاعل والموضـوع بؤرة النموذج العاملي وتبدو من جهة قريماس محمّلة «بالشحنة الدلالية الكامنة في الرغبة»(61). يحدد الفـاعل من هـذه الـرغبة العـامل الـراغب المتحـرّك بينما تمثّل الطلبـة مـوضوع الـرغبـة. وبصفتهـا هـذه تبـدو عامـلا سلبيـا غير متحـرك. ويطلـق قـريماس مصطلح «ملفـوظ حـالي»(62)لتعيين وضع كل مـن العـاملين بـالنسبـة إلى الآخـر اذ إن الصلـة بينهما استتباعية(63). فوجودهـذا يفترض وجود ذاك ويستوجبه. ويشرح ذلك بقـوله: «الصلـة بين العاملين تعـالقيـة (64) وهذا من شأنـه إتاحة النظـر إليهما من حيث إن أحدهما موجود دلاليّا لـلآخر وبه» (65) مقصيا بـذلك كلّ حكم وجوديّ على حضـورهما. فليس من

---

60) Objet/ sujet

61) قريماس (1966)، ص176.

62) énoncé d'état.

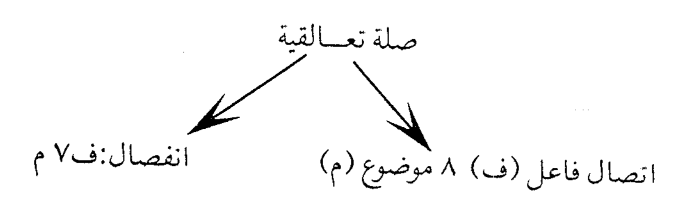
63) implication.

64) relation jonctive.

65) "Langages" n° 31, - p.19.

الضروري أن يكون الفاعل كائنا انسانيا كما لا يتحتم أن يكون الموضوع شيئا جامدا.

ولا تخلو العلاقة الحالية(66) بين العاملين من أحد الاحتمالين فإما أن تقوم على الاتصال ويرمز لهذه العلاقة بالعلامة التالية: ٨
و إما على الانفصال ويرمز إليها على النحو التالي: ٧



وينتقل قريماس إلى تحديد أنواع الموضوعات فيصنّفها ضربين: «موضوعات محمّلة بقيم ذاتية وأخريذات مدى موضوعي»(67)، جاعلا الضرب الأول موصولا بالكيان محدّدا حالة الذات. ومن ثمّ كان وسمه إيّا ه ب «حالة الكيان»(68) كأن يكون الفاعل سعيدا (فاعل 8 سعادة) أو غير سعيد (ف 7 سعادة) وعلى النقيض من ذلك يتجلى الضرب الثاني مشخّصا(69) حاضرا حضورا فعليا

---

66) relation d'état.
67) «العامل والقائمون بالفعل والصور»، ص 169.
68) état de l'être.
69) individué.

مثلما هو الحال بالنسبة إلى «العين »في نص « الأرنب والفيلة».

من ناحيـة أخرى لا يعني الانفصال انقطاع الصلـة بين الفاعل والموضـوع واستقـلال أحـدهما عن الآخـر. فإن أدى الأمـر إلى ذلك «انتفت الصلـة بينهما إطلاقـا ولم يعـد لـوجودهما مبرر وانحـدَرَا إلى العـدم الأوليّ.. ففي حال الانفصـال يظل حضورهما قـائما بالقـوة. ويظل الأول ينـزع إلى الثـاني سـاعيـا إلى الاتصال بـه وضمّـه إليـه» (70). كما أن مجرد الـرغبـة في تحقيق الاتصـال بموضـوع مـا يـؤهل الذات الراغبة للانتصاب فاعلا بالقوة.

● المؤتي والمُؤْتَى إليه(71):

يوحي حضـور هاتين الوحدتين العـاملتين في الخطاب السردي بوجـود عالم مُؤسَّسٍ على منظـومة من القيم(72) يحكم بمقتضـاها على الأفعـال سلبـاً أو إيجابـاً فتحلّ في مـرتبـة المحـرّم أو المبـاح أو الواجب.. والـوظيفة الموكولة إلى المؤتي تتمثل في المحـافظة على هذه القيم وصيـانتهـا وضمان استمرارهـا وذلك بتبليغهـا إلى المُؤتَى إليـه —الفاعل (73) أو املائها عليه.

هكذا يستوي المؤتي والمؤتى اليه في «سلّم تراتبيّ» يتبوأ فيه المؤتي مركزا فوقيـا وتكون علاقته بالمؤتى اليه — الفـاعل قائمة على تبعيّة

---

70) «لغات»، عدد 31، ص 19

destinateur /destinataire(71

.système axiologique(72

. destinataire - sujet (73

هذا إليه أو وفق تعبير قريماس الإصطلاحي «موجهّة من الكل إلى الجزء»(74) فيما تنتظم علاقة المؤتى إليه بالمُؤتي في اتجاه معاكس أي «من الجزء إلى الكل»(75).

ويضبط قريماس محلّ المؤتي من نموذجه العامليّ ووظيفته فيقول: «عندما حاولنا توضيح أحكام انتقال الموضوعات بين الفواعل في عالم مؤسّس على قيم ثابتة ومعترف بها ألفينا أنفسنا مضطرين إلى إغلاقه بواسطة حواجز أسندناها إلى «المؤتين» الذين يتولّون مهمّة صيانة هذه القيم من التلف وضمان انتقالها في عالم منغلق.. وبذلك يقومون مقام الوسطاء بين العالم الآني(76) والعالم المفارق السامي»(77).

غير أنه يضيف معلقا على وظيفتهم في العالم الأسطوري في موضع لاحق فيقول: «الفكر الأسطوري ومن المحتمل خيالنا الجمعي يأْبَى الاعتراف القبْلي بالقيم السائدة مُوثرًا تعويضها بعالم قيمي فوقيّ مفترضا امكانية التواصل بين العالمين»(78).

ولا يتّسع المقام للخوض في جدل لمعرفة ما اذا كانت هذه المثل قائمة في عالم الواقع المعيش أو في عالم المطلق المثالي. فسيان الأمر تعلّق بهذا أم بذاك المهم أن وظيفة المؤتي عند قريماس تتلخّص في

---

74) Hyperonymique

75) Hyponimique

76) immanent

77) transcendant

78) لغات عدد 31 ـ ص 78

المحافظـة على قيم أصيلة وترسيخها وضمان استمـرارها، كما لا يتّفق من وجهته— إلا في حـالات نادرة كالاتصـال الصوفي - أن يحصل تطابق تام بين المؤتي والمؤتى إليه الفـاعل إلا في عامل واحد. غير أن لبعض أتباعه(79) رأيا مخالفـا اذ يجوز في منظورهم اضطلاع عامل واحـد بوظيفـة كليهما. وأظهر الأمثلـة المجسّدة لهذه الحالـة عندمـا يكـون المؤتي قيمـــة مجردة كـامنـة في ذات الفـــاعل مثلما هـو الحال بالنسبـة إلى «الحب» أو «الشّعور بـالواجـب» وكثيرا ما يـؤدي تنازع «المؤتين» المتنـاقضين في ذات الفـاعـل إلى الحيرة والتردد. كفـانـا شـواهـد على ذلك «هملت» وشخصيـات كورني الـرئيسيـة وبعض شخصيات مسرحيات شوقي.

كما أن المؤتي عنـد هؤلاء الـدّارسين لا يكـون بـالضرورة حامـلا للقيم السّامية المثاليـة إنما يجوز أن يكون متنكرا لهذه القيم متبنيّا قيما متدهورة ساعيا إلى إقناع الذات الفـاعلة بجدوى اعتناقها وتحقيقها زورا وخداعا أو فـارضا إيّاها عليـه قهرا. واشارة سمير المرزوقي، إلى ان العقْد الجامع بين المؤتي والمؤتى إليـه في الآثار الأدبيـة المنتمية إلى العالم الثالث كثيرا ما يكون موسوما بطابع الهيمنة لا بحرية الاختيار، في محلها(80).

بقي أن نلفت الانتباه في خاتمة هـذا التحليل إلى أن للمؤتى إليه مفهومين. الأول يحيلنا على مـا كنّا أشرنا إليه عرضا في مـواطن سابقة

79) نذكر من هؤلاء جماعة أنترفيرن بوجه خاص.

80) سمير المرزوقي «مدخل إلى نظرية القصّة»

من أن الفاعل المرتبط بالمؤتي بحكم العقد هو المؤتى إليه (وعلى وجه الاتساع يطلق المصطلح على طالب الحاجة).

أما المفهوم الثاني فيخصّ المستفيد بالأمر مهما تكن هويته اذ يتّفق أن يكون هو المؤتي أو الفاعل أو كائنا فرديا أو جماعيا آخر. فالمستفيد من فعل ذي مدى وطني هو المجموعة البشرية المنتمية إلى الوطن المعنيّ. والرسم التالي يوضّح «تعالق» هذه المفاهيم:

تبليغ معرفيّ يخصّ

المؤتي ← المؤتى إليه (I) (أو الذات الفاعلة) تبليغ عمليّ للموضوع القيّم المتحصل عليه إلى: المؤتى إليه (II) أو الفاعل الحالي (81)

المهمة الموكولة إلى المؤتى إليه الفاعل

و إذا رمنا ايراد مثال يزيد في توضيح المفاهيم انطلاقا من نص «الأرانب والفيلة» أمكننا اعتبارُ فيروز «مؤتى إليه —فاعل» عندما

(81 sujet d'état.

عهد اليها ملك الأرانب (المؤتي) بمهمـة استرجاع العين. ثم تستوي فاعلا بحكم أنهاشرعت في القيـام بالمهمة. وتدّعي، عنـد مواجهتها ملك الفيلـة، أنها مفوّضـة من القمر (الـذي يحلّ في هذا السيـاق في منزلـة مؤتيها والمؤتي الضديـد بالنسبة إلى الفيلة). أمـا المؤتى إليه في خاتمة المطـاف فتجسّده مجموعـة الأرانب التي أضحت – من حيث هي فـاعل حاليّ – مـوصـولة بـالموضـوع ذي القيمة الإيجابيـة ونعني العين.

● المساعـد والمعـارض: (82)

تنتظم هاتان الوحدتان العـاملتان في سياق العلاقة بين الفاعل والموضـوع. تتحدّد وظيفـة المسـاعد في تقـديم العـون للفاعل بغيـة تحقيق مشروعه العمليّ والحصـول على الطِّلبة، فيما يقـوم «المعارض» حائلا دون تحقيق الفاعل طلبته وعائقا في طريقه.

ولمّا كـانت هـاتان الـوظيفتـان مـوصولتين بمكيّفـات الملفـوظ السردي والكفـاءة— وهو مـوضـوع سنعنى به في مـوضع لاحق — آثرنا عدم التوسّع فيهما تجنبا للتكرار.

3 — الأنموذج العامليّ في حركيته:

قمنا في القسم السـابق بـرصـد الوحـدات المؤسسـة للنمـوذج العـامليّ من حيث هـو نظـام قـائم كسـائر الأنظمـة على وحـدات

---

82) adjuvant / opposant.

«متعالقة» وثابتة. بقي ان نتعرف هذا النموذج في حركيته .ذلك أن السرد يقوم في أساسه على التحول من طور إلى طور والانتقال من حال إلى حال.

وسنحاول الوقوف على آلية التحول استنادا إلى أمثلة بسيطة:

ذكرنا أن الصلة المنتظمة بين الفاعل والموضوع تلازمية متراوحة بين الاتصال والانفصال. فإن طَالَعَنَا ملفوظ يتضمن تحوّلا في علاقة العاملين من الاتصال إلى الانفصال أو العكس، سميناه ملفوظا سرديا أساسيا(83) ويرسم بواسطة الرموز كما يلي:

[(ف1 ∧ م) ← (ف1 ∨ م)]

أو : [(ف1 ∨ م) ← (ف1 ∧ م)]

يستدعي هذا التحول ملاحظتين: الأولى أنه يتم وفق مشروع سرديّ (أو عمليّ)(84). ولمّا كان هذا المشروع يرمي إلى نقل الفاعل من حال إلى حال استحق وسمه ب«فعل كيان»(85). أما الملاحظة الثانية فمفادها أن الاستحالة تتحقق بواسطة «فاعل محوّل» أو «ذات فاعلة»(86).

ويستلــزم ذلك ادراج الفاعل المعنيّ في الصياغة الرمزية التي تصبح عند قريماس متشكّلة كالآتي:(87).

---

83) énoncé narratif élémentaire

84) Programme narratif ou pragmatique

85) faire - être

86) sujet opérateur ou sujet du faire.

87) «لغات»، عدد 31، ص 20.

«ت [ف ⟵ م 1]»

التاء ترمز لعملية التحويل والفاء للذات الفاعلة المحققة للتحويل والميم 1 للملفوظ الحالي.

فإذا عمدنا إلى إعادة كتابة صياغة قريماس الرمزية انتهينا إلى الرسم البيانيّ التالي:

ت[(ف ⟵ (ف1 ٧ م) ⟵ (ف1 ٨ م)]

أو: ت[(ف ⟵ (ف1 ٨ م) ⟵ (ف1 ٧ م)]

بقي أن نلاحظ أن الفعل يوصف بأنه انعكاسيّ(88) إذا كان الفاعل المنجز لعملية التحويل هو الفاعل الحالي الموصول بالموضوع في نهاية العملية وبأنه متعدّ(89) ان كان مختلفا عنه.

وقد يكون للتفريق بين نوعي الفعل فائدة في تعريفنا ببعض الأوضاع الاجتماعية والنفسية للقائمين بالفعل في مجتمع معيّن(90). من ذلك أنّ المرأة قلّما تكون هي القائمة بفعل التحويل في القصص العربية.

- **مضاعفة المشروع السرديّ وأنواع الانتقال:**

أقمنا تحليلنا السابق على افتراض وجود فاعل واحد(ف1) في علاقة بموضوع واحد.

(88 faire réflexif.

(89 faire transitif.

(90 «أقلام»، عدد 31 ـ ص 19.

فإن أدرجنا فاعلا ثانيا (ف2) معنيّا بالموضوع نفسه غير القابل للاشتراك فيه (91) تبيّنّا توسّعا في أنساق العلاقات. وهو ما سنسعى إلى رصده فيما يلي.

لنثبت أولا الرسم التجريديّ المجسّد لكلتا الحالتين المحتملتين:

1) (ف1 ٨ م) (ف 2 ٧ م) ويمكن أن نختزل هذا الشكل فنكتب:

(ف1 ٨ م ٧ ف2)

2) (ف1 ٧ م) (ف1 ٨ م) أو (ف1 ٧ م ٨ ف2)

وبانتقال الموضوع من ملكية أحد الطرفين إلى ملكية الآخر تستحيل «العلاقة الحالية» في اتجاهين متقابلين فيصبح الفاعل الحاليّ المتّصل بالموضوع في البداية منفصلا عنه في النهاية والمنفصل عنه في البداية متّصلا به في النهاية على نحو ما يبينه الرسم التالي:

1) (ف1 ٨ م ٧ ف2) ← (ف1 ٧ م ٨ ف2) أو:

2) (ف1 ٧ م ٨ ف2) ← (ف1 ٨ م ٧ ف2)

يستخلص قريماس مما تقدم بيانه نتيجة مؤداها «أن خطابًا سرديًا على جانب من البساطة يتأسّس على مشروعين سرديين

---

91) non participatif

«متلازمين»(92). ومن ثمّ يجوز للراوي أن يركّز على أحدهما جاعلا الآخـر ضمنيـا لكـن في اتجاه معكـوس»(93). كما يفترض —لكي يستقيم منطق التحليل السابق صحيحا— أن يجري انتقال الموضوع من فاعل إلى آخـر في عالم منغلق محكوم بقـواعد تعامليّـة قارة. فإذا امتلك فاعل موضوعا أفضى ذلـك إلى سلبه من فاعل آخر (ولنُسمِّه «فاعلا نقيضـا») كما يؤدي سلب فاعل موضوعا امتـلاك فاعل آخر له في حركـة دائرية مغلقة. ومما يجسّد هذه الظـاهرة في النص المتخذ نمـوذجا، نستقـي منه أمثلتنـا، أن امتـلاك الفيلة العين تـرتّب عنـه انفصال الأرانب عنها ونتج عن استرجاع هذه لها بَيْنُونَة الفيلة عنها.

هكـــذا نحصل على وجهين مـن وجـــوه التحـــويـل: تحويل اتصالي(94). يتجسد في صورة الامتلاك وتحويل انفصالي نتمثله في صـورة الإستلاب. وان تقـدمنا شـوطـا في التحليل موظّفين مفهـوم الفعل الإنعكـاسي والفعل المتعـدّي انطـلاقـا من الملفـوظ السردي المركب التالي:

ت ف ← [ف1-٨ م ٧ .ف2) ← (ف1 ٧ م ٨ ف2)]

انتهينا إلى ضبط أنواع انتقال أربعة تنتظم في قسمين:

أ— نوعان من التحويل الاتصالي هما:

---

92) Correlés.

93) «اللغات»، (31) ص29.

94) transformation conjonctive / disjonctive.

1 —«الاكتساب» (95) وذلك عندما يكون الفعل انعكاسيّا أي أنّ الفاعل القائم بعملية التحويل هو ذاته الفاعل الحاليّ الموصول بالموضوع في النهاية (ف = ف2). مثال ذلك أن الفيلة هي نفسها القائمة بفعل السطو على العين والمُسْتفيدَة بها في خاتمة المشروع.

2 — «الوصل»(96) إذا كان الفعل متعديّا ومعناه كما ألمعنا أن المحقّق للفعل هو غير الفاعل الحالي المتصل بالموضوع في النهاية (ف ≠ ف2) إذا افترضنا أن الأرنب فيروز التي قامت بفعل استرجاع العين ومنحها إلى مجموعة الأرانب لا تنتمي إلى هذه المجموعة عدّ ذلك مثالا مجسّدا للمفهوم المعنيّ.

ب— نوعان من التحويل المفضي إلى الانفصال وهما:

1 — «التنازل»(97) إذا كان الفعل انعكاسيّا ويفترض ذلك —وفق ما حددنا— أن القائم بعملية التحويل هو نفسه الفاعل الحالي المنفصل عن الموضوع في النهاية (ف =ف1) (مثال ذلك أن تتخلى الأرانب عن العين لتتصل بها الفيلة بمحض ارادتها)

2 —«الانتزاع»(98) إذا كان الفعل متعديا وبيانه أن القائم بفعل التحويل هو غير الفاعل الحالي المنفصل في النهاية عن

---

95) appropriation.

96) attribution.

97) renonciation.

98) expropriation.

الموضوع (ف ≠ ف1) يعدّ استرجاع العين فعل انتزاع قامت به الأرنب فيروز.

استنادا إلى اصناف الانتقال المحددة آنفا نخلص إلى تعيين مفهومي الهبة والاختبار.

● الهبة والاختبار(99):

تقوم الهبة من وجهة قريماس على تلازم ضربين من ضروب الانتقال هما: «التنازل» و«الوَصْلُ». وتكسب النص طابع الاتزان والتواصل والبراءة ،فيما يتأسس الاختبار على تلازم الاكتساب والانتزاع، ويكسب النص سمة التوتر والصراع. فانتزاع الفيلة العين واستئثارها بها ولّدا افتقارا في ذات الأرانب ومن ثم رغبة في محوه بالقيام بمشروع نقيض يستهدف استرجاع الطَّلبة.

ولنا في الجدول التالي تلخيص للمفهومين المعنيين:

	امتلاك	استلاب
اختبار	اكتساب	انتزاع
هبة	وصل	تنازل

---

99) don / épreuve.

ويزيد قريماس في توضيح مفهوم الاختبار، فيبين أنه يجري على مراحل ثلاث أساسية هي: أولا الاختبار الترشيحيّ(100) الذي ينتهي عادة باكتساب الذات الفاعلة القدرة المؤهلة لتحقيق الطّلبة. ومما يجسد هذا الضرب من الاختبار في نصّنا أن فيروز خرجت في ليلة مضيئة بالقمر ثم تسلقت جبلا وأشرفت من قمته على الفيلة. ولما افترضنا أن العلوّ يتحدد بقدرته على أن يكون (101)، جاز عدّ انتصابها في موقع عال وادّعائها أنّ القمر الذي في موقع أعلى هو وليّها ومؤتيها عاملين مساعدين أهّلاها لاكتساب القدرة في نظر الفيلة،ومخاطبتها من ثمّ بلهجة حادة، لهجة المسيطر الآمر.

ثانيا: الاختبار الرئيسيّ ويجري بين الفاعل والفاعل الضديد وتكون نتيجته تحقيق الطّلبة أو الفشل في تحقيقها.

ثالثا: الاختبار التمجيدي(102) ويحصل بين الفاعل والمؤتي الذي يقوّم نتائج المرحلتين السابقتين مبينا في ضوء ذلك موقفه بمقتضى فعل تأويلي. وهكذا إن كان فعل الذات الفاعلة مطابقا لما تم الاتفاق عليه بموجب العقد كوفئت الذات وإلا أُنْزِلَ بها العقاب. وفيها تكتسي هذه المرحلة مسحة معرفية تكتسي المرحلتان الأوليان مسحة عملية. وستكون لنا عودة إلى بعض ما ذكرنا في هذا الصدد في موضوع لاحق.

épreuve qualifiante(100

Pouvoir - être (101

épreuve glorifiante (102

ولا يفوتنـا أن نشير إلى أن قريماس يجعل كل مرحلـة من مراحل الاختبـار المذكورة مكـونة من ثـلاث مراحل فـرعية هي: المواجهـة والهيمنة والنتيجة (تطـالعنا هذه المراحل في الاختبـار الرئيسيّ الذي جرى بين الأرنـب فيروز وملك الفيلة. فـالمواجهة تقـوم على مخاطبة الأرنب الملك مخاطبـة مباشرة ودعـوتها إياه أن يخلي المكـان. والهيمنة مظهرها خوف الملك مـن الحاق القمر به الأذى إن عصى. والنتيجة تتجلى في الاستجابة إلى الدعوة ومغادرة فضاء الأرانب).

● **التبـــــادل (103):**

عـالجنـا فيما سبق أجنـاس العـلاقـات المحتمل تـولـدهـا من انتصـاب فاعلين متقـابلين مهتمين بمـوضوع واحـد. ونفترض الآن وجود مـوضوعين، أحدهما في عـلاقة اتصال بفـاعل (ف1) والآخر في حال انفصال عنه. ويصاغ ذلك رمزيا كما يلي:

(م1 ∧ ف1 ∨ م2)   أو   (م1 ∨ف1 ∧ م2)

. واستحالـة العلاقة بين العـوامل تؤدي إلى انفصـال الفاعل عن الموضوع المتصل به قبل عملية التحويل واتصاله بالموضوع المنفصل عنه قبل العملية نفسها أيضا:

(م1 ∧ ف1 ∨ م2) ←———— (م1 ∨ف1 ∧ م2)

أو (م1 ∨ ف1 ∧ م2) ←———— (م1 ∧ ف1 ∨ م2)

---

(103) échange.

وفي حال انتصاب فـاعل ثان متصل بأحد الموضـوعين ومبادلته إياه بموضوع آخر في حـوزة فاعل أول نحصل على الرسم التجريدي التالي:

الحالة الأولى : (م1 ∨ ف1 ∧ م2) : (م1 ∧ ف2 ∨ م2)

الحالة الثانية بعد عملية التغير: (م1 ∧ ف1 ∨ م2): (م1 ∨ ف2 ∧ م2)

تعد هاتـان العمليتان التحويليتان انجازا ثنائيـا منبنيا على الهبة ويستوي فيهما كل من الفـاعلين قائما بفعل التحـويل وفي الآن ذاته فاعلا حاليا.

ولنـا في نص «الأرانب والفيلـة» مثـال مجسد للظـاهـرة المعنيـة بالـوصف وذلك عندمـا يوثـر ملك الفيلة —عن قصـد واختيار— الاستجابـة لعرض فيروز بإخـلاء المكان حفاظـا على سلامتـه وضنّا بنفســه من التلف. فمن الــدلالات المستفــادة من قــراءة النص دلاليّا— بصرف النظـر عن جانب المصـداقية المستكن فيـه والذي سنتناوله في مـوضع لاحق— أنه ينتظم في سياق التبـادل. وبيانه أن ملك الفيلة رضي بالتخلّي عن الموضوع المتّصل به وهو العين معوّضا إياه بموضوع يتجاوزه— عنده— قيمـة وهو السلامة واتقاء الأذى. أما الأرنب فيروز فقد ظفـرت بموضوع قيّم كانت منفصلـة عنه وهو العين ووهبت مـوضـوعا ادّعت —كـذبـا— أن مفـوّضها (القمـر) موصول به وهو تعطيل قدرته على ايتاء الأذى.

نستخلص مما سبق عرضه نتيجتين هامتين:

الأولى حَاصِلُهَا أن الـوحدات العاملية لا قيمـة لها في حد ذاتها

إنّها تكتسب قيمتها في انتظامها في علاقات بوحدات عاملية أخرى. فليس للموضوعات قيمة ولا معنى بمعزل عن الفواعل التي تسند إليها بالتحديد هذا المعنى وتلك القيمة وتبدي موقفها منها وفق مقاييس معينة. وهكذا يحصل التبادل بمقتضى عقد - يسميه قريماس عقدا ائتمانيا(104) تتفق على إبرامه - صراحة أو ضمنا - الفواعل المعنية بعملية التبادل. كما أن الفواعل لا تكتسب معناها إلا استنادا إلى الموضوعات الموظّفة وسيطا يربط بين بعض الفواعل وبعض.

أما النّتيجة الثانية فمفادها أن ما تعرضنا إليه من ملفوظات بسيطة ومركّبة يلخّص مفهوم السردية التي تقوم وفق منظور قريماس «على تحوّل أو مجموعة تحوّلات تنتهي إلى اتّصال الفواعل بموضوعاتها أو انفصالها عنها»(104) ويستتبع ذلك اسقاط اللامتواصل على المتواصل بغية إبراز آلية تولّد المعنى وهو ما يعبّر عنه قريماس بقوله « السردية هي مداهمة اللامتواصل المنقطع للمطرد المستمر في حياة تاريخ أو شخص أو ثقافة إذ نعمد إلى تفكيك وَحْدَةِ هذه الحياة إلى مفاصل مميّزة تُدْرَجُ ضمنها التحولاتُ». ويسمح هذا بتحديد هذه الملفوظات في مرحلة أولى من حيث هي ملفوظات فعل تصيب ملفوظات حال فتؤثر فيها. والملفوظات المعنيّة تضمن الوجود الدلالّي للفواعل في تعالقها

---

104) «لغات»، (31) ص 20.
104) نفسه.

بالموضوعات القيمة اتصالا أو انفصالا»(104).

● المكيّفات (105)

تركز تحليلنا السابق على السردية القائمة كما رأينا على علاقات الفواعل بعضها ببعض والمشاريع العملية المؤدية إلى انتقال الموضوعات انتقالا متنوّع الوجوه. بقي أن نتعرّف في سياق المستوى السّطحي نفسه نوعيّة العلاقات التي يمكن أن تنتظم بين الفاعل وفعله والتي توسم في المنظور العاملي ب«مكيفات الفعل» (106) من ناحية، وبين الفاعل والموضوع ،أو ما يعرف في حكم المنظور نفسه ب«مكيفات الملفوظ الحاليّ»(107) من ناحية أخرى. وسنفرد لكلا الضربين من المكيفات فصلا مبتدئين بالأول:

● **مكيّفات الفعل**: إذا تأملنا الملفوظات التالية:

« الأرانب ترغب في أن تنصرف الفيلة عن العين» .

«الأرانب تأبى ألا تنصرف الفيلة عن العين»

«الأرانب تشعر بوجوب انصراف الفيلة عن العين»

«الأرانب لا تستطيع صرف الفيلة عن العين»

لاحظنا أنها تشترك في مقومات منها خاصة الوحدات العاملية (المجسّدة في الأرانب والفيلة والعين وموضوع الفعل القائم على صرف الفيلة عن العين). لكنها تختلف في نوعية العلاقة بين الذات

---

104) نفسه.

Les modalités(105

modalité du faire(106

modalité d'état (107

الفاعلة وفعلهـا أو ما يوسم من وجهة دلاليـة ب«كيفية الفعل» ففي الملفوظ الأول تتجلى الـرغبة في الفعل، والملفـوظ الثاني يبرز الإصرار على الرفض، ويفيد الثالث الشعـور بوجوب الفعل، فيما يبيّن الرابع انعدام القدرة على الفعل.

وكما يفترض قـريماس انتصـاب فـاعل قـائم بعمليـة التحـويل بالنسبة إلى المشـاريع العملية كذلك يفترض وجود عـامل ظاهر أو خفّي مسؤول عن تغيير نـوعية العـلاقة بين الذات الفـاعلة والفعل المعتـزم القيـام به بمـوجب فعل اقنـاعي. هـذا العـامل هـو المؤتي. وستكون لنا عودة إلى هذا الموضوع في موضع لاحق.

يسلمنـا الاهتمام بمسألـة «مكيفـات الفعل» إلى دراسـة كفـاءة القائم به ومحاولة تبين أينتصب هذا القائم بـالفعل فاعلا بارادته، أم بقدرتـه ، أم بمعرفته، أم بهذه المقـومات جميعـا، أم ببعض الأجناس المتولدة عن امتزاجها دون بعض؟ ويتّفق أن يتركز المشروع العملي - في ملفـوظ سردي يقصر أو يطـول وقد يمسـح الأثر كـامـلا - على تحويل العـلاقة بين الفاعـل وفعله كتحـويل اللامبـالاة أو الكره إلى الرغبـة والحب في بعض أنماط القصص الغرامي على سبيـل المثال، وكتحـويل العجـز إلى القـدرة. من ذلك أن الأرنب فيروز تسلقت الجبل وأشرفت من قمته على الفيلـة سعيا إلى اكتساب قدرة تـؤهلها لمواجهة الفيلة في الاختبار الرئيسيّ.

ولمّا كـــانـت المكيفات المحددة للكفاءة وافرة العدد لا يكاد يحصرهـا إحصاء، فقـد حدّ قـريماس منها وأرجعهـا — استجابـة لما يتطلبه المنهج النظـريّ الاستقرائي القائم على اخضـاع المادة المشتتة إلى قواعـد قليلة جـامعة —إلى ثلاثـة رئيسية وأضـاف إليها أتبـاعه

واحدا جاعلين إياها أربعة، وهي: «الشعور بوجوب الفعل» و«الرغبة في الفعل» و«القدرة على الفعل» و«المعرفة بالفعل». يعدّ «المكيفان» الأوّلان مؤسِّسَيْن للفاعل بالقوّة بحكم أنهما سابقان للفعل ولمّا كانا عنوان مدى التصاق الفاعل بفعله أسندت إليهما صفة «كيان فعل»(108)، فيما يحدد المكيّفان الآخران من الفاعل مدى قدرته على إنجاز الفعل. لذا، نُعِتَا بـ«فعل الكيان»(109). فمن البيّن أن التطابق بين الرغبة في الفعل أو الشعور بوجوب الفعل من ناحية والقدرة على الفعل أو المعرفة به من ناحية أخرى غير آليّ. اذ يجُوز أن يكون الفاعل راغبًا في الفعل وليس قادرا عليه أو عارفا بالقيام به. كما يجوز أن يكون قادرا لكن غير راغب. مثال ذلك أن الفيلة وطئت أجحار الأرانب وقتلت عددا منها مما يدل على قدرتها. لكن القرائن تفيد أنها أتت هذا الفعل دون الرغبة فيه أو تعمده وربما بالرغم منها. فتنتصب — تبعا لذلك — فاعلا بالاقتدار. بينما تنتصب الأرنب فيروز فاعلة بالرغبة وبالشعور بوجوب الفعل ثم با لمعرفة بالفعل معوّضة بذلك ما تفتقر إليه من قدرة مادية على الفعل. كما يتفق أن يأنس الفاعل في نفسه القدرة على الفعل أو المعرفة به لكن الأحداث اللاحقة تظهر بطلان ذلك.

● نظام المكيفات:

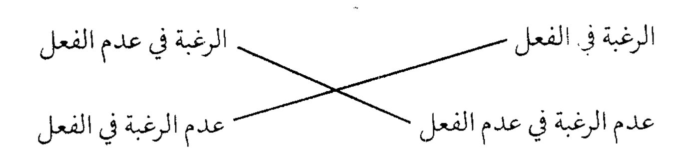
---

108) être du faire.

109) faire de l'être.

ذكرنا أنّ المكيّفات تحدد من الذات القائمة بالفعل كفاءتها. والدارس مدعوّ إلى وصف أنساق الامتزاج المتولّدة عن إدماج بعض «المكيفات» ببعض وصولا إلى بسط معالم كفاءة الفاعل المعني. ولنشر بادئا إلى أن رصد هذه الأنساق يقتضي في مرحلة أولى اشتقاق وحدات مكيّفة فرعية من كل واحد من المكيّفات الرئيسية المذكورة عن طريق اسقاطها على المثال الرّباعيّ الأضلاع.

فإذا أسقطنا الرغبة في الفعل والشعور بوجوب الفعل على المربّع المذكور انتهينا إلى استخراج المكيّفات الفرعية المثبتة في الرسمين التاليين:



الشعور بوجوب الفعل — الشعور بعدم وجوب الفعل

عدم الشعور بعدم وجوب الفعل — عدم الشعور بوجوب الفعل

نعمد في مرحلة ثانية إلى ضم كل وحدة من الوحدات الفرعية في المثال الأول إلى كل وحدة من وحدات المثال الثاني. والنتيجة الحاصلة في القيام بهذا الضرب من العمليات ذات الطابع الرياضي

أننا نستنبط عددا وافرا من أنساق العلاقات محددين بذلك أنماط الكفاءات القائمة بالفعل في النصوص السردية المعروفة والمحتملة. من أمثلة هذه الأنماط نذكر ما يلي:

إن ضممنا الرغبة في الفعل إلى الشعور بوجوب الفعل انتهينا إلى تجسيد الطاعة النشيطة (هكذا تتجلى كفاءة فيروز عندما اعتزمت القيام بفعل استرداد العين) بينما الجمع بين الشعور بعدم وجوب الفعل وعدم الرغبة في الفعل يَؤُولُ إلى المقاومة النشيطة. ودمج الشعور بوجوب الفعل في الرغبة في عدم الفعل يميّز التردّد (من الشخصيات المجسدة لهذه الحالة «هاملت») بينما نحصل بوصل «عدم الرغبة» في عدم الفعل «بعدم الشعور بعدم وجوب الفعل» على الإرادة السلبية...

وكثيرا ما يطرأ على كفاءة الشخصية تطوّر يكثر أو يقل على امتداد الخطاب السردي مما يستوجب تعيين مظاهر هذا التطور وتوضيح أيجري في إتجاه سلبيّ أم ايجابي؟ ودراسة كوكي المذكورة آنفا والقائمة أساسا على تحديد كفاءة شخصيات كلوديل المسرحية ووجوه تطوّرها،على جانب كبير من الأهمية لما توفّره من أدوات دقيقة و«إجرائية» مفيدة في البحث والتخريج.

وإن نحن رمنا معالجة بعض مكيفات الفعل في نص «الأرانب والفيلة» لاحظنا توفر وحدتي الشعور بوجوب الفعل والرغبة فيه عند فيروز. والنتيجة ما نلمسه في سلوكها من حيوية ونشاط. ثم في مرحلة تالية نتعرفها موظفة معرفتها بحذق وكياسة مستعيضة بذلك ما تفتقر إليه من كفاءة مادية فعلية. وأظهر من هذا المثال في إبراز

استحالة الكفاءة من طور إلى طور ما يطالعنا من اختلاف في كفاءة الفيلة بين البداية والنهاية.

فممّا نستخلصه من القرائن القائمة في القسم الأول من النص أنها —أي الفيلة— ترغب في الإقامة في فضاء الأرانب الذي يضمن لها إشباع حاجتها من الماء غير آبهة لما تعرضت إليه الأرانب وتتعرض إليه هي من ضرر. وبالتالي فهي لا تشعر بوجوب مغادرة المكان استجابة لدواع «أخلاقية» أو «إنسانية» لما تأنسه في نفسها من قدرة على البقاء عَنْوة وفرض إرادتها بقوة بنيتها الموروثة. وهكذا تتلخص الوحدات المكيفة للكفاءة كما يلي: عدم الرغبة في الفعل+ عدم الشعور بوجوب الفعل + القدرة على الفعل.

هذه الوحدات جميعا تؤهلها للحلول في مرتبة المقاومة النشيطة. لكن الموقف لا يلبث أن يطرأ عليه تغير عندما تشارف الحكاية النهاية. وذلك أن ملك الفيلة حَسِبَ فيروز جادة في كلامها صادقة فيما تقول وإن نازعه بعضُ الشك آيتُه أنه اختبر مدى صِدقِها بالقيام بالتجربة التي أوعزت له بها الأرنب مما يسمح بإثبات الوحدات المكيفة لكفاءتها في هذه المرحلة كما يلي:

عدم الشعور بعدم وجوب مغادرة العين+ عدم الرغبة في مغادرتها. وينتج عن ذلك ضرب من التردّد الذي لا يلبث أن يتبدّد بعد أن تثبّتَتْ من صحّة كلام الأرنب وداخلها شعور ملحّ بوجوب مغادرة العين. فإذا بالرغبة في الإقامة في فضاء الأرانب تنحسر نتيجة توهّمها أنها غير قادرة على تحدّي إرادة القمر.

● مكيّفات الملفوظ الحالي:

كما أن العلاقة بين الفاعل وفعله قد تتغير من ملفوظ سرديّ إلى ملفوظ آخر، وهو ما قمنا بتعرّف معالمه في الفصل السّابق، كذلك يمكن أن يتغيّر وضع الفاعل بالنّسبة إلى موضوعه لا من حيث العلاقة الحاليّة المنبنية، كما رأينا، على الاتصال أو الانفصال، وإنّما من حيث مدى صدق هذه العلاقة الحالية. فبوسعنا أن نصف علاقة الاتصال بين فاعل وموضوع بأنها صادقة أو كاذبة أو باطلة. دون أن نغير نوعية العلاقة الحالية. فالملفوظان التاليان: «ملك الأرانب متزن السلوك» و«يبدو أن ملك الأرانب متزن السلوك» يتفقان من حيث إن كليهما ينبني في مستوى العلاقة الحالية على الاتصال بين الفاعل (ملك الأرانب) والموضوع (الاتزان) (ف ٨ م). ومع ذلك لا نعدم اختلافا نوعيا بينهما مردّه إلى أن المتلفظ بهما لا يسند إلى كليهما قيمة واحدة في مستوى «صدق العلاقة». ففيما يقرّر في الملفوظ الأول أن علاقة الاتصال بين الفاعل والموضوع ثابتة وصادقة جاعلا ظاهر ما يبدو من تصرفات الملك كلاما أو فعلا أو كليهما مطابقا لباطنه ولكيانه، نراه في الملفوظ الثاني يومىء بأن الحكم المتلفظ به والمعنيّ بالعلاقة نفسها لا يلزمه هو بقدر ما يلزم عينا مجردة أو «معاينا» (110) مضمّنا في النص. ولا تنكشف الحقيقة حقيقة مطابقة المستوى الإنّي(111) للمستوى الظاهر

---

110) instance.
111) plan immanent

المتجلّي(112) أو ما يسمّيه قريماس «المعرفة عن الكيان»(113) إلا استنادا إلى قرائن لاحقة وفي بعض الأحيان مبثوثة في كامل النص.

تنتظم دراسة هذا الموضوع ضمن ما يعرف في المنظور العاملي بـ «المصداقية»(114).

● المصداقية : بين الظاهر والباطن (115)

ننطلق من مسلّمة أوّلية مفادها أن كل علاقة بين فاعل وموضوع تعرض من وجهة نظر «معاين» ما مضمّن في النص. ويستتبع هذا أن التقديم غير بريء إنما ينطوي على فعل تأويليّ تقويميّ ينتقل المعاين بمقتضاه من الظاهر الجليّ إلى الكيان الباطنيّ مبرزا مدى مطابقة هذا لذاك.

وهكذا يتضح أن «المصداقية» تخصّ الأحكام التقويمية القائمة في صلب النص خلافا للمنظور التقليديّ الذي يستند في أحكامه إلى مقاييس مرجعيّة خارجيّة. ويشير قريماس في معرض معالجته لهذا الموضوع إلى أن إعادة النظر في السنن التقليدية الخاصة بالصدق كانت نتيجة من نتائج الإقرار بفرضية سوسور القائلة بأن اللغة نظام من العلامات الدالة مستقل عن ضروب التعبير الأخرى بقدر استقلاله عن المراجع الخارجية الواقعة، وينتظم ذلك في سياق المبدإ المعروف في المنظور الألسنيّ ب «إنّية اللغة». من ثم

112) plan de la manifestation.

113) المعجم ص48.

114) veridiction.

115) être / paraître.

انتقض الحديث عن الصدق من حيث هو حكم يخصّ مدى ملاءمة المقول لحقائق خارجية ولم يعد له محل في الدراسة الدلالية واستعيض عنه بمفهوم «المصداقية». وقد وضّح قريماس ذلك بقوله: «أصبحت المسألة —مسألة الصدق— تبسط في حدود الملفوظ الداخلية بصرف النظر عن المقاييس المرجعية. وهكذا يمكن أن نصف موضوعا عاما بأنه صادق أو باطل أو كاذب انطلاقا من آليات معرفية منتظمة في صلب البلاغ القائم بين المرسل والمرسل إليه. ذلك أن الحقيقة ليست مضمونا مستقلا بذاته بيّن الحدود خاضعا إلى مقاييس خارجية»(116).

فما يؤكده باث لمتقبّل من أنه صادق وأن ما يتلفّظ به هو الحقيقة عينها لا يكفي لنطمئن إليه ونكون على بيّنة من الحقيقة متيقنين منها. إنما نحن مدعوّون إلى وصل ذلك بملابسات الخطاب محددين في هذا الصدد الظروف المكانية والزمانية الحافة بعملية الخطاب وهوية المتخاطبين ونوعية الصلات القائمة بينهم ونوايا كل منهم وكيفية تصوره لنوايا المخاطب أو المخاطَبين. كل ذلك يسهم في تعديل الخطاب ورسم حدود «الخطط الخطابية»(117) التي يستعملها المتخاطبون أفرادا كانوا أم جماعات بغية إثارة ما يسميه بارت «أصداء الحقيقة»(118) وإكساب الخطاب سمة الصدق(119) ومن ثم إقناع المتقبّل بصحة المقول والتأثير فيه

116) المعجم ص 418.
117) stratégies discursives.
118) «effet de vérité» «إبلاغات»، عدد4.
119) faire paraître vrai.





آلية عدّ ذلك نتيجة لعِلّة خفيّة هي غضب القمر. وهذا الحكم ذاته يعدّ فعلا ثانويا ينتظم في سياق فعل تأويليّ رئيسيّ هو التحقّق من صدق فيروز وصحّة ما تقول.

● مربّع المصداقية: (122)

كلّ علاقة حالية نقوّم من وجهتي الإنّي والمتجلّي أو الباطن والظّاهر. وتنشأ عن فنون تآلف الوحدات المتولّدة من هاتين الوجهتين صور عدّة محدِّدة لمفهوم المصداقية:

1) إذا كانت العلاقة الحالية في كلا المستويين موسومة ايجابيا (باطن + ظاهر)، استقامت في مرتبة «الصدق». مثال ذلك تصديق ملك الفيلة كلام فيروز جاعلا ظاهره مطابقا لباطنه.

2) إذا وسمت العلاقة الحالية سلبيا في كلا المستويين (لا باطن+ لا ظاهر) حكم عليها بالبطلان(123). من ذلك أن الباث المنظم لحقيقة النص في «الأرانب والفيلة» لا يضمّن خطا به قرائن ندلّ على واقع مجموعة الأرانب في ظاهرها أو في باطنها.

3) إذا كانت العلاقة الحالية محدَّدة سلبيا في مستوى المتجلّي وإيجابيا في مستوى إنّي (لا ظاهر+باطن) استوت في منزلة «السرّ»(124). من علامات ذلك أن الأر نب فيروز عندما أبدت

---

122) يسمّى أيضا «المربّع القابل للمصداقية» carré véridictoire.

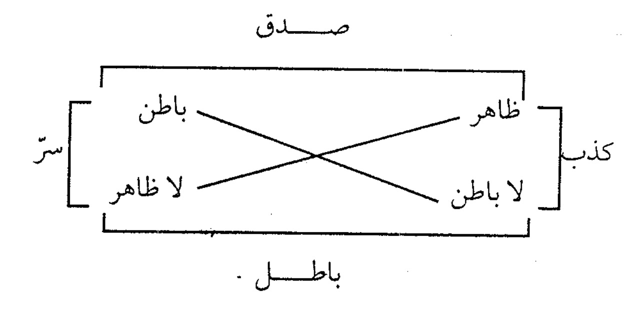
123) faux.

124) secret.

استعدادها للقيام بالفعل لم تفصح عن مقاصدها وخطتها الخفية.

4) في حال تحديد العلاقة الحالية ايجابيا على صعيد المتجلّي وسلبيا على صعيد الإنّي (ظاهر+لا باطن)، تكون العلاقة بمنزلة «الكذب» . وما يجسد هذا الوجه أن فيروز تخبر الملك بأنها مفوضة من «المؤتي» القمر، والحال أن القرائن الكامنة في النص تبطل هذا الخبر وتجعله في مرتبة الادعاء والكذب.

والرسم البيانيّ التالي يلخّص هذه الوجوه جميعا:



ومثلما يتعين على الدارس أن يوضح كيفية تطور الكفاءة من مرحلة إلى أخرى، كذلك هو مدعوّ إلى تتبع مراحل المصداقية وأستحالتها من طور إلى آخر. مثال ذلك أن فيروز كانت في مرحلة أولى تحلّ في ركن «السرّ» ثم أضحت فيما بعد تحتل مرتبة «الكذب» من وجهة الباث الخفيّ، ومرتبة «الصدق» من وجهة ملك الفيلة.

كما يجوز أن يتأسس مشروع سرديّ على اكتساب وجه من وجوه





تحديد الوحدات السياقية. فقد أشرنا عرضا إلى أن الملفوظ السرديّ الأساسيّ يقوم على تحوّل بسيط من حال إلى حال. لكن التحوّل يستدعي بدوره سلسلة من التحولات الموصولة بعضها ببعض بأسباب منطقية. ويطلق مصطلح «المقطع السردي» على وحدة سرديّة كاملة مكوّنة من المناورة والإنجاز العمليّ للمشروع والجزاء.

وليس من الضروريّ أن نقف على جميع هذه المراحل المؤلفة للمقطع السرديّ. فقد نجد بعضها دون بعض كما قد يُتبسّط في بعضها ويُخْتزل بعضها. ويتفق في حالات أخرى أن تتضمن مرحلة من المراحل المذكورة جميع المراحل المكوّنة للمقطع السردي أو بعضها.

المناورة	تنتظم في مستوى علاقة المؤتي بالمؤتى إليه وتأثير ذاك في هذا للقيام بالفعل وهو ما يوسم بالفعل الإقناعي (فعل فعل)	التعريف بقيمة الأشياء التي هي موضوع المشروع المعتزم القيام به	إبرام العقد بين المؤتي والمؤتى إليه	مدى معرفي إقناعي
الكفاءة	كيان الفعل	الرغبة في الفعل الشعور بوجوب الفعل القدرة على الفعل المعرفة بالفعل		↓
الانجاز	فعل كيان	السعي الى تحقيق الموضوع ونقل الكيان من حال الى حال	مدى عملي	مدى معرفي تأويلي
الجزاء	تقييم الأفعال والموضوعات التي تم تحقيقها: (كيان الكيان)			

والتحليل السرديّ لا يقضي بفرض النموذج العامليّ على النصوص وإخضاعها لإطار قبلي تحشر قسرا فيه. بل لا يعدو أنّه تصور عام تكمن وظيفته في هِدَايتنا إلى نوعيّة الخطاب السرديّ وخاصّياته. فمن النصوص ما يركّز على الفعل الإقناعي ومنها ما يلحّ على الكفاءة أو على الجزاء. ويتوسّل الدارس بهذا الجانب أو ذاك من النموذج الفاعليّ موظّفا إيّاه في الاستقراء أو التحليل بحسب نوعية النصّ المدروس.

كما أن النموذج العاملي يفيدنا من حيث إنّه أداة تيسّر لنا —بمجرد تعرّف ملفوظ سرديّ معيّن— التنبّؤ بما سيحدث وافتراض وقوع أحداث سابقة معينة. فاستحواذ الفيلة على العين يفترض قيامها بمشروع سابق أفضى إلى هذه النتيجة. كما أنه بِوُسْعِنَا التنبؤ انطلاقا من هذا الحدث ووفق ما نعرفه من ملابساته وكفاءة المعنيين به بالمجرى اللاحق للأحداث.

من ناحية أخرى لا تخلو بعض المصطلحات من اشكالية في ضبط مفاهيمها. من هذا المصطلحات «المشروع السردي» الذي يسمّي جملة الإنجازات الهادفة إلى تحقيق تحويل رئيسيّ. ومع ذلك يطالعنا في عدد من الدراسات التطبيقية (124) ما يفيد أن القيام بإنجاز معين وإن كان محدود الفائدة يصنّف في عداد المشاريع العملية مما يوقع في بعض الغموض. والرأي عندنا أن نفرد مصطلح «مشروع سردي رئيسيّ» لتعيين الصنف الأول من الإنجازات أي

---

124) المصدر السابق.

تلك المستهدفـة تحقيق تحويل رئيسي في مستوى العلاقـة الحالية بين الفاعـل والموضوع على أن تختص بمصطلح «مشروع سردي ثـانوي» الإنجازات الفرعيـة المنتظمة في نِطَاق هذا المشروع والـرامية —على سبيل المثـال— إلى اكتســاب الكفـاءة أو القـائمــة على الاختبـار بمختلف أنـواعـه. ولنـا فيما أشار إليـه قـريماس في بعض مـواضع كتاباته ما يـدعم ذلك، إذ يصرح قائلا: «المشروع السرديّ هو وحدة من الخطاب السردي قائمة بذاتها وقابلة لتوظف حكايةً لكن يمكن كذلك أن تـدرج ضمنه من حيث هي جـزء من الأجزاء المكوّنـة له. والموضع الـذي تحتلـه يحدد منها وظيفتهـا في البنيـة العـامة للنظـام السردي» (1970 ص253) وتأسيسا على هـذا بوسعنا أن نعتبر أن عمليــة استرجــاع العين مشروع رئيسيّ تنـدرج ضمنــه جملــة من المشاريع الثانوية، مِنْهَـا الاستشارة —استشارة ملك الأرانب لأفراد مجموعته— وأكتساب الكفـاءة والاختبار الرئيسي... نضيف إلى هذا أن المشاريـع السردية تتتابـع في المستوى السيـاقي تتابعـا «عكسيا» نعني أن كل مشروع عملي يـولّـد مشروعــا عمليّـا نقيضـا، ومن ثمّ تحوّلات ضديـدة، مع تفاوت في حجم المشـاريع. فإذا كان المشروع الأول الذي انتهـى إلى انفصال الأرانب عن عينهـا قصيرا، فالمشروع النقيض القائم على استرجاع العين ممتد ينسحب على القسم الأكبر من الخطــــاب. ثم إنّ كـلّ مشروع سرديّ يفترض في المستــــوى الاستبداليّ وجود مشروع معـاكس يقوم به فاعل ضديـد وهكذا يتاح للمـؤلف أن يعنى بحكـايـة مشروع ما أو نقيضـه. فمشروع أنتـزاع الفيلـة للعين وأتصـالها بها يـؤسّـس ضمنـا المشروع النقيض الـذي ينبني على فقدان الأرانب لها وانفصالها عنها.

ب) المكـــوّن التّصويـــري:

لهذا المكوّن صلة بالعالم المحسوس في تنوّعه اللاّنهائي. ويكتسي هذا المكـوّن طابعـا جدليا لتحكّم ثنـائية التوحّـد والتنوّع فيـه. بيان ذلك أن الذات المنشئة تسعى إلى ردّ المتفـرّق إلى الواحد والمتعدّد إلى المفـرد. والعالم الـدّال يأبى التـوحّد ويتمـرّد عليـه وإن بدا واحـدا. والأدب مثله مثل سائر أنماط الإبداع ينزع بوسائله التعبيرية الخاصة إلى إدراك المعنى الكلّي. أداته في ذلك اللغة الواحدة، لكن في صلب هذه الـوحدة يكمـن التنوع ويَسْتَقِرّ الاختـلاف. إذ بوسـع المبدع أن يؤدي حكـاية بـوسائل تعبيرية متنـوعة وبأسـاليب لغويـة متعدّدة. والاختـلاف يـرد بـالتحـديد إلى تنـوع هـذه الأسـاليب أي في نهايـة المطاف إلى الفنون التصويرية التي يتوسّل بها المؤلّف لإكساء النظام السردي المجرّد في كلّ مكـوّناتـه بأردية تتنـوّع تنوعَ العـالم المحسوس الذي يوهم العالم المخيَّل بأنه صورة عاكسة له وترجيع لصداه.

ويهمّ الدارسَ تحليلُ المتنوع بقدر ما يعنيه تعرف معالم الموحّد. وهـو في كلتـا الحالتين يتـوخى التجريـد ويجتهـد في استقـراء الكلّي المشترك.

- **المفردات المعجمية والصورة:**

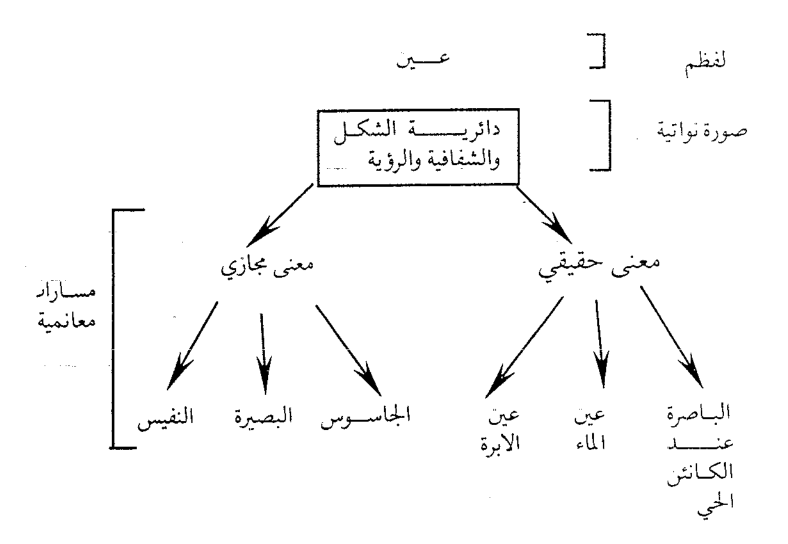
عندما نباشر قراءة نص نكتشف تدريجيا أصداء معنوية تتكثّف

وتتضح معالمها كلّما تقدمنا في القراءة. وما إن نأتي على قراءة النص كاملا حتّى تستوي هذه الأصداء منتظمة في إطار دلاليّ جامع. ولا يستفاد المعنى، نتيجة المشاريع السردية وكيفية انتظام الأدوار العاملية والوظائف والتحولات وما إليها ،من خصائص النظام السردي فحسب بل يحصل كذلك نتيجة الصور والأساليب البيانية الموظفة لإكساء النظام السردي وتجسيده في مظهره الخارجيّ. ولمّا كانت هذه الصور متولّدة من مفردات لغوية وفنون تأليفها وجب ضبط حدود هذه المفردات وخاصياتها.

فـ«لفظم»(125) «عين» على سبيل المثال يثير في مفهومه الأول متصوّرا يعرّفه القاموس بأنه الباصرة أو العضو الذي يتيح للكائن الحيّ النظر. لكن التجربة تفيدنا أن لهذا المتصوّر المطلق دلالات حافة تتعدّد بتعدد السياقات التي يرد فيها فيؤدي في سياق معنى الجاسوس وفي آخر معنى النفيس وفي خامس معنى مصدر الماء ،والعين كذلك الخالص من الشيء، وعين الإبرة ثقبها. لكن إن نحن أمعنّا النظر في هذه المفاهيم جميعا لاحظنا أنها تنتظم حول صور جوهرية مشتركة جماعها دائرية الشكل والشفافية والرؤية. ويطلق قريماس عليها «الصورة النواتية» Sème nucléaire محددا إياها بقوله: «إنها الصورة الأساسية المنطوية على امكانيات تعبيرية ماثلة بالقوة وميسّرة تحقيق مسارات معانمية «(Parcours sémé-miques) في سياق الخطاب».

---

125) lexème.



ويؤكد قريماس أن اللفظم لا يكاد يستعمل في صُوَرِه مجتمعة مطلقا في ملفوظ. ذلك «ان كل ملفوظ باعتباره بسطا لمحور دلاليّ معين ليس سوى استغلال جزئيّ جدا لرصيد الاحتمالات المستكنة في الوحدات اللغوية المستعملة والتي تظل مع ذلك مواصلة وجودها بالقوة ومستعدة للانبعاث بمجرد القيام بعملية التذكر»(126) .وعلى الدارس تتبّع هجرة الوحدة اللغوية في الخطاب الواحد ورصد السياقات الواردة فيها حتى يبيّن مدى كثافة

126)العامل والقائمون بالفعل والصور ص170.

الشحنـة الدلاليـة المستكنة فيهـا أو مـا يسمّى في المنظور الأسلـوبيّ ب«حقل اللفظم الدلالي»(127).

من جهــة أخـرى مــوصـولــة بالسابقة أوْ ضَحَتْ الدراسات الأسلوبية أن بين لفـاظم منتظمة في سياق واحد عـلاقات تقابل أو اختلاف أو اتفاق ناسجة على هذا النسق شبكات لغوية، أو «حبالا منعقـدة» على حــدّ تعبير الجاحظ، يُطْلَقُ عليهـا تسميــة «حقـول معجمية»(128).

هكذا لا يعنـى الدارس بعزل الصور وفصل بعضها عن بعض، إنّما يوجه عنـايته إلى تحديد فنون اتسـاقها وتآلفها واختـلافها. فعين الماء في نص «الأرانب والفيلـة»، والقمـر المستـديـر الشكل الشبيـه بالعين الباصرة، والعين التي ترى صـورة القمر منعكسة على صفحة الماء، والعين بمفهـوم البصيرة، تنتظم كلها في سيـاق واحد وتَتَضـامّ ويحيل بعضها على بعض مؤلفة شبكات صورية دالة.

ويـزيد قـريماس في توضيح التشكيل التصـويريّ فيقـول: «من المفيد أن نقدم مثا لا بسيطا لتجسيد ما ندعوه بالتصويرية. لنفترض أولا خطابا يتضمن ملفوظا يخصّ ذاتا منفصلـة عن موضوعها الذي لا يعدو أنه هدف نحويّ مشحـون بقيمة مثل قيمة اكتساب القدرة [أي مـوضـوع صيغي: ف V مـوضـوع صيغي] فيمكن للخطـاب

______

127) Champ sémantique.
128) champ lexématique.

انطلاقا مما حددنـا أن يتشكّل ويصبح مشروعا سرديا متمثلا في نزوع الذات إلى التـوحد بموضوعهـا. إلا أن طرق قص الحكايـة متعدّدة. متى يصبح الخطاب إذن تصـويريا؟ عندما يشحـن الموضوع بشحنة دلاليـة تخول للذات أن تـدركه من حيـث هو صـورة تمثيلية. مثـال ذلك: «اقتنـاء سيـارة»: ف7م (صيغيّ ← اقتنـاء سيـارة). يسمّى الخطاب الـذي يتولى نقل طـريقة امتـلاك السيارة— بما يشفع ذلك من جهد وحركة واعتراف الآخرين بهذا المجهـود، خطابا تصويريا. وهكـذا يتّضح أن الفعـل التصـويـريّ يتعلق بـا لمسـار السردي في شمـوليته. فـالصـورة التمثيلية للسيـارة تهم جميع الصيرورات لأنها تحوّلها إلى جملـة من الأفعـال كما تجعل من الـذات فاعـلا يتحـرك في إطار الزمان والمكان(129).

نخلص إلى التّعـريف بضربين من ضروب تَضَام الصـور. الأول يسميه قـريماس بـ «المسـار الصوري»(130) ويعرّفـه بأنه مجمـوعة صور متلاحمة يشد بعضها بعضـا ويحيل بعضها على بعض.فالسيّارة والقطار والحافلة والطائرة تؤلف مسارا صوريا يحمل عنوان «وسائل النقل» ،كذلك يجسّد الملفـوظ التالي الوارد في مستهل نص «الأرانب والفيلـة»: « زعمو أن أرضـا تتـابعت عليها السنـون وأجـدبت وقلّ ماؤها وغارت عيونها وذوى نبتها ويبس شجرها» مسارا صوريا قائما

---

129) نقلناه مع شيء من التصحيح عن عبد العزيز عرفة في ترجمة له لبعض مواد معجم قريماس (الفكر العربيّ المعاصر)، عدد 44 ص38 .

130) Parcours figuratif.

على مفهوم «الجفاف». وبوسعنا كذلك اعتبار خطاب ملك الأرانب الموجّه إلى فيروز مجسّدا لمسار صوريّ ينبني على مفهوم «الفضيلة».

أمّا الضرب الثاني من تضامّ الصور فيسميه قريماس «التجمع الصوري»(131). ويحدده بقوله: «نسوق مثالا مألوفا دالا على هذا الضرب من التعبير التصويريّ وهو أن «الشمس» تنتظم في إطارها كوكبة من الصور مثل الأشعة والإشراق والحرارة والهواء والشفافية والخثانة والسحاب... هذه الملاحظة تحملنا على القول بأن الصور اللفظمية تظهر نظريا في حدود الملفوظات لكنها تخترق بيسر هذه الحدود لتؤلّف شبكات صورية تقوم بينها علاقات متنوّعة يمكن أن تمتد على مقاطع كاملة مكوّنة تجمعات صوريّة»(132). ويضيف في موضع لاحق أن هذه التجمعات تؤسّس، وإن في حدود، طرافَةَ الخطاب من حيث هو «شكل منظم للمعنَى». ومن الأمثلة المجسدة لمفهوم التجمع الصوري في نص «الأرانب والفيلة» أن صور الجفاف والعين وما توحي به من خصب والجبل وأجحار الأرانب والعراء والقمر نأتلف جميعها في إطار «الحياة في الغابة».

● الغرض والدور الغرضيّ (133)

---

131) configuration figurative.
132) «العامل والقائمون بالفعل والصور»، ص 170
133) thème / rôle thématique.

يدرك المسار الصوريّ من حيث هو تعبير عن الغرض الذي يجوز أن يكتسي صورا تعبيرية أخرى. وكما يشير قريماس فمجرد «تردد في اختيار صورة أو أخرى محمّلة بدور معين قد يؤدي إلى ظهور مسارات صورية متباينة لكن متوازية. ويمهّد تحقيق هذه المسارات إلى إثارة مشكلية التنويعات»(134). ويضيف معلقا على مدى تأثير اختيار مسار أو آخر في المجرى البيانيّ على امتداد مقطع سردي أو جزء منه فيقول: «إن جعل الصورة الموظفة لتصوير الطقسيّ مجسَّدَة في خادم الكنيسة أو قواسها أو الراهب يؤثر لا محالة في السياق التصويريّ للمقطع جميعه أو جزء منه ويتأثر به —تبعا لذلك— مجرى الأحداث وإطارها المكاني تأثرا مناسبا للصورة المنتخبة في البداية... لكن من الجائز التعبير عن غرض واحد بأساليب تصويرية متنوعة»(134). وهكذا يمكن أن يتشكل غرض الخيانة على سبيل المثال في صور متعدّدة، منها: خيانة الأمانة وخيانة الصداقة والخيانة الزوجية وخيانة الوطن...

ولمّا كان باستطاعة شخصية أن تتبنّى مسارا صوريا وتحقّقه عُدَّت قائمةً بدور غرضيّ. هذا الدور هو وليد اختزالين: «الأول يقوم على حصر «التجمع الصوريّ» في المسار الصوري وعلى جعل هذا المسار منسوبا إلى عون كُفْءٍ بالنسبة إلى الثاني»(135). وعلى

---

134) «العامل والقائمون بالفعل والصور»، ص 173.
135) المصدر نفسه ص 174.

الدارس أن يرصـد الأدوار الغرضية التي تتبناهـا شخصية وتضطلع بها حتّى يحدّد منها صفـاتها ووظائفها على امتـداد الخطاب السردي ويجلوها من ثم في كثافتها الدلالية.

وقد لا يحتاج إلى ذلك بالنسبة إلى الحكايات الشعبية الشفوية إذ تبدو الأدوار الغـرضية فيها محددة مسبقا مـاثلة في الذاكـرة الجماعية خاضعـة إلى سنن قـارة تجعل منها نماذج قـائمة بـذاتها محددة نهائيا كالأدوار الغرضية المنسوبة إلى الفـرفور أو إلى السامر أو الحكواتي أو الغول.

● القائم بالفعل (136):

حدّدنـا، في معرض تحليلنا المكوّن السرديّ، خصـائص العوامل والـوظائف التي تقـوم بها في نطاق النمـوذج العاملي. لكن العـامل يضطلع إضافـة إلى دوره العاملي بدور أو أدوار غرضيـة. ومن المفيد أن نلم بـالشخصيـة من حيث وظيفتها أو وظـائفهـا العـاملية وما ينـاسب هذه الـوظيفة أو الـوظـائف من أدوار غرضيـة. فعلى سبيل المثـال ينتصب ملك الأرانب مـؤتيـا من حيث وظيفتـه العـامليـة. ويقوم في هذا النطـاق بأدوار غرضية جماعها ثـلاثة: الأول أنه يحسن معاملة رعيته آيـة ذلك استشارته إياها فيما حَزَبَ مـن أمر واستفادته من رأيها. ثانيـا أنه خبير بأفـراد رعيته وواثق بـذوي الكفاءة منهم.

---

136) acteur.

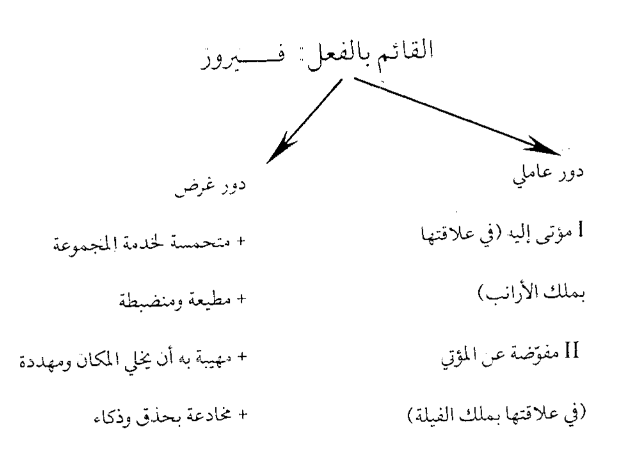
والــــدليل على ذلك امتناعه من إنفاذ رقيب يتولّى معاينة فيروز ويكون شاهدا على تصرّفاتها. ثـالثا أنه واعظ يتجلى ذلك في إسدائه النصيحة إلى رسوله بأن يتـوخى اللين في مخاطبة الفيلة ويتحلّى بالفضيلة.

أما فيروز فتنتقل من وضع المؤتى إليه — الفاعل في مرحلة أولى، ويقوم دورها الغرضي في هذا الوضع على الحماسة والاندفاع في خدمة المجموعة والاستعداد للتضحية ،إلى مفوض عن مؤت عند مواجهتها ملك الفيلة في مرحلة تالية. وتضطلع في هذه المرحلة بأدوار غرضية تنبني على التحذير والخداع وتوظيف معرفتها «عن كيان الفيلة» وبحقائق الطبيعة.

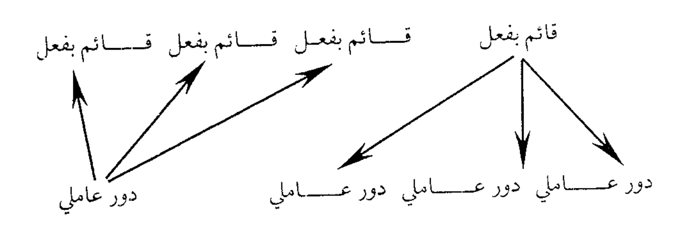
وقد أوجد قريماس مصطلح «القائم بفعل» لتعيين «الدور الغرضي والدور العاملي مجتمعين» (137). وفي هذا الصدد يقول: «يبدو أنه — أي القائم بفعل — مَوْطِنُ لقاء وتقاطع بين البُنَى السردية والبنى التصويرية لأنه محمّل في الآن ذاته بما لا يقل عن دور غرضي ودور عاملي. وهذا وذاك يحددان منه كفاءته وحدود فعله وكيانه»(138).

---

137) قريماس (1966)، ص 256.
138) «العامل والقائمون بالفعل»، ص176



ولا يفوتنا أن نشير إلى أنـه يجوز أن يكون القائم بالفعـل الواحد مجسّـدا لأدوار عامليـة كثيرة. فالأرنب فيروز تقـوم بدور المؤتى إليـه والفاعل والمفـوض عن المؤتي. كما يمكن أن يقوم بدور عـامليّ واحد أكثر من قائم بفعـل ومثاله أن القائمين بالفعل «مجمـوعة الأرانب» و«مجموعـة الفيلة» يضطلعون بـدور عامليّ واحد هـو «المؤتى إليه». ويبين لنا الرسمان التاليان كلتا الحالتين:



4

المستوى العميق



كنا تناولنا المستوى السطحيّ بمكوّنيْه السرديّ والتصويريّ. وعالجنا في سياق تحليلنا هذا المستوى البنية المتجلية على نسيج النص الخارجي مبرزين الوحدات المكوّنة له ونظم علاقات بعضها ببعض. بقي أن نتعرف البُنى التحتية العميقة المتحكمة في البنية السطحية والمولّدة لها.

ومثلما عمدنا في تحليلنا البنية السطحية إلى اسقاط الجزئي المتقطع على المتواصل المسترسل، كذلك نقوم بالعملية نفسها في تناولنا المستوى العميق. وإن كان التقطيع في هذا المستوى أكثر إشكالا وأذهب في التعقيد من التقطيع في ذاك بحكم غموض الدلالة واستعصاء حصرها.

غير أن التقطيع ضرورة يقتضيها الوفاء للمنهج القائم — كما أسلفنا — على فرضية مؤداها أن الدلالة ليست مضمونا قائم الذات بوسعنا النفاذ إليه بيسر، إنما تستخلص بدراسة الشكل وتعرف ضروب العلاقة المنتظمة بين الوحدات المكونة للنسيج الدال. وهكذا انطلق قريماس في دراسته البنية العميقة من التقطيع إلى وحدات دلالية صغرى أطلق عليها تسمية «المعانم».

● المعنم من حيث هو سمة مميّزة (139):

---

139) معنم Sème

ليس للمعنم دلالة في حدّ ذاته إنها يكتسب دلالته من فنون العلاقة القائمة بينه وبين وحدات معنمية أخرى. فوظيفته «خلافية»(140) أساسا. وقياسا على ما يقوم به عالم اللسان من تعيين السمات المميّزة لبعض الصواتم عن بعض منتهيا إلى تأسيس نظام جامع أنساق التآلف والاختلاف بينها في نظرة موسومة بالاختزال والتجريد، فالدراسة الدلالية تقتضي في هذا المستوى تفكيك الوحدات المعانمية إلى مكوناتها الصغرى المميزة وصولا إلى استخلاص حزمات من السمات الدلالية الأساسية.

وإذا قمنا بهذه العملية بالنسبة إلى وحدات معجمية تنتمي إلى حقل دلاليّ واحد لاحظنا أن بعض المعانم المكوّنة لها يلتقي مع بعض، وبعضها يختلف عن بعض أو يقابله. لِنَسُقْ الصورتين اللفظميتين التاليتين: «الأمل» و«اليأس»، ولنفكّكْهما إلى وحداتهما المعنمية الرئيسية. النتيجة التي ننتهي إليها أننا نلاحظ اتفاقهما في معنمين. أولهما الإحالة على إحساس داخليّ وثانيهما الاختصاص بالمستقبل. مع وجود معنم يفرق بينهما ويخص القيمة المضمنة في كليهما حيث إنّ احدهما يتضمن قيمة إيجابية فيما يقيّم الثاني سلبيا. وإن نحن تقدمنا في التحليل تبينا أن السمة الدلالية المشتركة الأولى، وهي الإحساس الداخليّ، تفرق كلتيهما عن الوحدة اللفظمية» «عمل» بناء على انتفاء السمة الدلالية المميّزة المعنيّة منها

---

140) fonction différentielle.

تفرّق السمة الدلالية الثانية بينهما وبين لفظم «تذكر» لخلوه من السمة المذكورة.

ونسوق مثالا آخر أضحى تقليديا وينبني على تحديد علاقات الائتلاف والاختلاف بين المعانم المكوّنة للمجموعة التالية من اللفاظم: رجل — امرأة — طفل — أب — أم — ابن — بنت. ويفضي الاستقراء المعنميّ إلى استنباط نظام يوضحه الرسم التالي:

	انساني	ذكر	أنثى	كهولة	لا كهولة	والد	بنوّة
رجل	+	+	−	+	−	0	0
امرأة	+	−	+	+	−	0	0
أب	+	+	−	+	−	+	−
أم	+	−	+	+	−	+	−
ابن	+	+	−	0	0	−	+
بنت	+	−	+	0	0	−	+

العلامة ←	المرموز إليه
+	إيجاب
−	سلب
0	صورة مزيج من السلب والإيجاب

وبوسعنا أن نطبق المبدأ المعروف القائم على الاستبدال(141)، فنحصل على صور أخرى. من ثم نتبين مدى ما يكمن في عدد محدود من المعانم من طاقة في توليد الصور والدلالات بمجرد توليفها في أنساق مختلفة.

● المعانم السياقية (142):

ما يهيّء إتصال بعض الصور الموضوعة في خطاب واحد ببعض و«تعالق» بعضها مع بعض وجود معانم عامة تسمى «معانم سياقية» (143). وتستفاد كما يدل عليه اسمها من السياق ومن خاصياتها طاقتها التوليدية بحكم إحالتها على أقسام عامة مثل : حياة/ موت — إنساني/ حيواني — حيّ/ جامد — منغلق/ منفتح. فعبارة «أصداء» على سبيل المثال مكوّنة من معانم أهمها: الرجع والخفوت. وتتغيّر دلالتها بتغير القسم الذي تنتمي إليه والذي يستفاد من السياق. ففي قولنا «أصداء صوته» تحيلنا على مدى فيزيائي غير أن مزيدا من معرفة السياق يوضّح القسم المُضمّن لها. فإذا كان المقصود «أصداء صوت الرجل» أدرجت في سياق انساني. وإذا كان المقصود «أصداء صوت الأسد» حملت دلالة الحيواني. وإذا كان المعنيّ «أصداء صوت لارتطام الطائرة» ضمنت دلالة صناعية حضارية. وإذا كان المقصود «أصداء

---

141) commutation.

142) sème contextuel = classème.

143) euphorie / dysphorie.

البركان» كان لها دلالة تخصّ الطبيعة. ونسجا على هذا المنوال يمكن أن نستقرئ الدلالات العامة الكامنة في ملفوظات أخرى مثل: «أصداء الماضي» و«أصداء الحدث» و«أصداء الضمير».

وكثيرا ما يعمد الخطاب الشعري إلى المزج بين صور تنتمي إلى أقسام معنمية متناقضة أو مختلفة والتلاعب بها بطرق شتى ففي قول صلاح عبد الصبور «شجيرة جديبة زرعتها بلفظي العقيم» تزاوج بين صور تنتمي إلى أقسام معنمية غير متجانسة منها الإنسانيّ ومنها النباتي. وعنهما يتفرع الفعل الكلامي والفعل الطبيعي.

● القطب الدلالي (144):

تتواتر على امتداد الخطاب الواحد مجموعة أو مجموعات من المعانم الموصولة بعضها ببعض بوشائج، والمتوالجة فيما بينها، مكسبة نسيجه بهذا النسق من التواتر وحدة واتساقا. ويطلق على المجموعة من هذه المجموعات اسم «القطب الدلالي». فمن المعانم المتردّدة على سبيل المثال في نص «الأرانب والفيلة» ما هو موصول بالجسد في حقيقته المادية كالعطش والارتواء ،ووطء الفيلة أجحار الأرانب، وقتل عدد منها، وخوف فيروز من الوقوع تحت أقدام الفيلة فابتعادها عنها، وخشية الفيلة من أن يتلف القمر عينيه، فطلبه السلامة لنفسه ولرعيته بإخلاء المكان. وإذا شئنـ

---

144) isotopie.

مزيدا من التدقيق قلنا ان هذا القطب الدلاليّ ينشعب فرعين.

1 — ما يدل على سلامة الجسد

2 — ما يدل على إصابة الجسد بأذى.

ولما افترضنا أن الوحدة الدلاّلية لا تدرك إلا بانتظامها في علاقة خلافية بوحدة أو وحدات أخـرى، اعتبرنا أن الجسدى يولّد نقيضه وهو ما ليس بجسـدّي. وبذلك نخلص إلى ما هو موصـول بالروح في النص وعلى وجه التحـديد بالأخـلاقي. ومن هذا القطب يتـولّد القطب السياسيّ والقطب الاجتماعيّ.

يتعرض قـريماس إلى ضرب آخر من الأقطاب الدلاليـة ويسميه القطب السّيمنتيكي(145) مُحِلاًّ إياه في مرتبة أعلى من السابق، اذ يخصّ تواتـر المعانم السيـاقية. وأوضح مثال نسـوقه تجسيـدا لذلك تـراوح دلالـة نص «الأرانب والفيلـة» بين الانسـاني والحيـواني. فما يتصل بـالجسـد وبـالصراع من أجل البقـاء بـوجـه عـام يحيل على الحيواني. أما ما يخص التنظيم الاجتماعـي والسياسي والقيم الروحية — إجمالا — فيحيل على الانسـاني. والتـوالج بين القطبين المعنيين يكسب النص مدى رمزيا مجازيـا. ويسوغ أن نضيف في هذا المجال أن المدى الرمزي ليس بـالضرورة — كما يتوهم البعض — تعويض شيء بشيء مع بقاء المبـدل به على حالته سليما غير مشـوب بشائبة.

______

isotopic sémiologique / isotopie sémantique. (145

فمن أهم ما يفيدنا به بعض المختصين في دراسة الاستعارة (146) أن المشبه به يتأثر با لمشبّه مثلما يتأثر هذا بذاك. وعلى هذا ففي الانساني يكمن الحيواني، كما يكمن الانساني في الحيواني.

● المربع الدلالي (147):

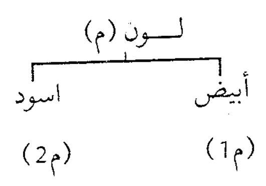
أشرنا سابقا إلى أن الدلالة تستخلص من علاقات الاختلاف والتقابل القائمة بين حزمة من الوحدات الدالة. فكما لا يستقيم مفهوم المجهور الا بمقابلته با لمهموس، كذلك يدرك معنى الطول بمقابلته بالقصر، ومعنى العلم بمقابلته بالجهل، ومعنى الحياة بمقابلته بالموت. تعدّ هذه الثنائيات البنية الاساسية للدلالة. غير أن التقابل بين المعنمين المؤسسين للبنية الدلالية الاساسية يقتضي وجود عنصر مشترك بينهما. نطلق على هذا العنصر تسميه «المحور الدلالي» (148). فالمحور الدلالي الجامع للثنائية الدلالية: الحياة ـ الموت هو الوجود. بينما تجتمع ثنائية العلم والجهل في محور المعرفة، وثنائية أبيض ـ أسود في محور اللون:

---

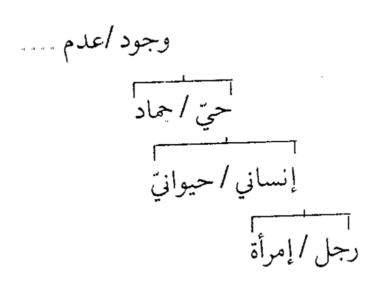
146) يمكن الرجوع إلى «لغات» السنة الثانية عشرة سبتمبر 1978 ص 7 ـ 53.

147) يسمّى أيضاً «المثال التأليفي» / modèle constitutionnel.

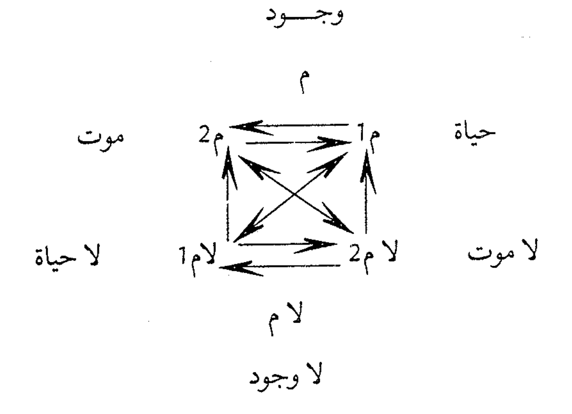
148) axe sémantique.



واذا كـانت العـلاقـة بين المعنمين المثبتين في الـرسم بعـلامـة «م1» و«م2» علاقـة تضاد فـان العلاقـة بين (م1) و (م) من نـاحية وبين (م2) و(م) من نــاحيـــة أخـرى «عـــلاقـــة تـراتبيـــة» relation hiérarchique. ويهمنـا ان نشير إلى أن المحـــور الـدلالي المعنّي يمكن أن ينتظم في علاقـة تقابلية مع محور آخر. وهـذا المحور ينتظم بدوره في علاقـة تقابلية مع محور آخر. وهكـذا ننتهي إلى استخلاص محاور دلاليـة مضمن بعضهـا في بعض ومتـولـد بعضهـا من بعض. فـــالـــرجل والمرأة، على سبيل المثـــال، دلالتـــان تشتركـــان في محور «إنساني». ويدرك هذا المحور بدوره في علاقته بالحيواني. وهذا وذاك يجمعهما محور «حيّ» الذي يفهم بدوره في علاقته بمحور جماد.... .



بوسعنا — انطلاقا من البنية الدلالية الأساسية القائمة كما ذكرنا على التقابل ان نؤسس نموذجا منطقيا ينظم شبكة من العلاقات بين وحدات دلالية متولدة عن البنية المذكورة نسمي هذا النموذج «المربع العلامي» الذي يصاغ كما يلي:



وسنبين نوعية العلاقات القائمة بين أركان النموذج:

1 — توجد بين (م1) و(م2) من ناحية و (م) من ناحية أخرى علاقات تراتبية(149) وتنتظم العلاقة نفسها بين (لام2) و(لام1) من ناحية و(لام) من ناحية أخرى.

---

149) relation hiérarchique.

2— تنبني العلاقة بين (م1) و(لام1) على التناقض(150). فإحدى الوحدتين تنفي الأخرى وتنقضها. فلا مجال للجمع بينهما أو إيجاد لفظ وسيط بينهما. فمن المتحتم اختيار هذه أو تلك(151). وعلى النحو نفسه تنتظم العلاقة بين (م2) و(لام2).

3— تنبني العلاقة بين (م1) و(م2) على الضدية (152). إذ يقابل أحدهما الآخر ويعاكسه. ويفترض وجود أحدهما وجود الآخر. فعندما أتلفظ بعبارة «أسود» أفكر تلقائيا وضمنيا في ضدها، وهو «أبيض». وخلافا للوحدتين الدلاليتين المتناقضتين اللتين تنفي إحداهما الأخرى نفيا مطلقا، فإن التقابل يسمح بوجود معانم وسيطة تأخذ بطرف من دلالة من المتقابلين. فنستخرج (لا أبيض) و(لا أسود)، وهما قائمان في المحور الدلالي (لام)، أي «لالون». أما بالنسبة إلى العلاقة بين (لام1) و(لام 2) فيسمّيها قريماس ب«ما فوق الضدية» (153).

4 — العلاقة بين (لا م2)و (م1) من ناحية وبين (لام1) و(م2) من ناحية أخرى توسم ب «الاستتباعية» (154). فإثبات معنم «لا أسود» يقضي بإلغاء معنم أسود وتيسير ظهور المعنم المقابل وهو (أبيض) وإثباته. وكثيرا ما تعتمد المعانم المنفية موطن

---

contradiction (150
Sélection :اختيار (151
contrariété (152
sub contrariété(153
implication (154

«اعتماد» للانتقال إلى الوحدة المعنمية المقابلة. فإثبات معنى «لا حياة» ييسّر إبراز المعنى الضديد وهو «الموت»(155). ما ينبغي تأكيده هو أن هذا النموذج شكليّ وان وظيفته لا تعدو استقراء حركية المعنى وتحوّله من طور إلى طور بصرف النظر عن العالم الخارجي الذي لا تربطه باللغة، وتبعا لذلك بالنص، علاقة انعكاسية آلية. إنما هو — أي العالم الخارجيّ— مؤول على وجوه تختلف من لغة إلى أخرى. ألا نرى ان العربية تدرج ضمن ركن «لا ليل» المتفرع من الثنائية الدلالية ليل / نهار لفظم «فجر» و«سَحَر»، وضمن ركن «لا ليل» لفظم غروب، إضافة إلى جعلها النهار ذاته مراحل منها «الصبح» و«الظهر» و«الضحى»؟ على خلاف ما تعمد إليه لغات أخرى في تقطيع الواقع نفسه. ما يهم الإلحاح عليه هو أن ما نستقرئه من النص هو صدى المعنى الذي لا تربطه بالعالم الخارجي سوى صلات واهية. بقي أن نتعرض إلى موضوع على حظ وافر من التعقيد ويخص علاقة المستوى العميق بالمستوى السطحي بمكونيه وكيفية تولّد هذا من ذاك. فالمربع العلامي يهيء — بحكم أنه يضبط العلاقات المنطقية القائمة بين الوحدات الدلالية الكامنة في عمق النص - اكتشاف بنية الدلالة العميقة المؤسسة للنص والمتحكمة في بنيته السطحية. معنى هذا أنه يجسد شكل المعنى الذي ينبني عليه النص في جملته. ويقودنا هذا إلى إثارة قضية

---

155)يطلق قريماس على الوحدتين الدلاليتين المتناقضتين تسمية Schéma وعلى الوحدتين المتقابلتين تسمية déxis .

مـرتبطة بـا لمنطق ومنتظمـة حول ثنـائيـة: علاقـة / عملية(156).
فـالعلاقـة المذكورة بين الـوحـدات الدلاليـة المؤسّسة لبنيـة النصّ
العميقة ذات مـدى منطقي أي أنها تكشف البنية في حالتهـا القارة
وكانـنـا اختزلنـا الخطاب كـاملا في وحـدات دلالية محدودة العـدد
وهي الوحدات المولدة لمساحة النص الظاهرة.

لكن الخطاب السردي، والخطاب اللغوي عامة، يخضع كما هو
معروف لمبـدإ «الخطية». فهـو ليس فضـاء منبسطا يتجلى كما تتجلى
لوحة مرسومة مرّة واحدة من جميع زواياها. إنما تتوالى الملفوظات فيه
تـواليا سيـاقيـا. ويقتضي هذا استحـالـة المعنى بموجب عمليـات
منطقية. ممـا يستوجب تحريك المربـع وبعث الحياة فيـه. ولما سلّمنا
بمبـدإ الخطيـة استتبع ذلك الإقـرار بـأن كل ركن من أركـان المربع
تنـاسبه عمليـة في المستـوى التوزيعي السيـاقي. فإذا أثبتنـا علاقـة
تنـاقض افترض ذلك الانتقـال من الإيجاب إلى السلب أو العكس
كأن ننتقل من مشاريع سرديـة وأدوار غرضيـة تنبني على قيم سلبية
(مثل الجهل أو الظلم)، إلى مشـاريـع وأدوار تجسـد القيم النقيضـة
(اللاجهل أو الـلاظلم).وفي حال إثبات العـلاقة الاستتباعيـة نقوم
بعملية انتخـاب، أي أننا ننتقي انطـلاقا من الركـن النقيض الركن

---

156) relation/ opération. ويسوغ أن نترجم هـاتين الكلمتين بـ«حركة نقلة» بالنسبة إلى الأولى و«حركـة اعتماد» بالنسبة إلى الثانية، وذلك نقلا عـن محمد عابد الجابـري الذي ينقلهما بـدوره عن إبراهيم السيّـار المعتـزلي معرّفـا «حركـة اعتماد» بقوله «إنها حـركة الشيء في نفس موضعه حـركة الجسم المعدّ للإطـلاق كالسهم قبل إطلاقه مثـلا» و«حركة نقلة» بقوله: «إنها تعني الانتقـال من حال إلى أخرى» («تكوين العقل العربيّ» بيروت ـ الطليعة ص42)

المقابل، كأنّ ننتقل من اللاجهل المناقض للجهل إلى المعرفة المقابلة للّفظ نفسـه. وكثيرا ما يكـون إثبات الـركن النقيض موطن ارتكـاز ووسيطا لإثبات الركن المقابل. وقـد عالج قريماس ذلك في الدراسة المتصلـة بعالم بـرنانـوس(157) المنبني في جملته على ثنـائية دلاليـة عميقـة، هي الحياة والموت، مـوضحـا أن الانتقـال من الملفوظـات السردية في المستوى السطحي والدالة على الحيـاة إلى نقائضها الدالة على الموت ترتكـز على وحدات منتمية إلى المستوى نفسـه وتدل على اللاحياة.

157) برنانوس Bernanos ـ قريماس (1966) ص 222 ـ 256.



5

الخاتمة



عمـدنــا في تقديمنا نظرية قريماس السردية إلى التركيز على أهم المبـادىء المؤسسة لهذه النظـريـة والتي تجلـو الفعل الدلالي وتجعلـه شفّافـا، ملتزمين منهجا تعليميا في البسط والتحليل. واستجـابة لهذا السبب بـالتحديـد اضطررنـا إلى إهمال مسائل هـامة مـازالت محل بحث وإثـارة للجـدل. من ذلك عـدم تعـرّضنا لموضـوع الـدلالـة الزمانية والمكـانية المنتظمة —نظريا— في إطار المكـون التصويري، بناء على أن قـريماس لم يُعْنَ — في حدود اطلاعنـا — بالتنظير لها، مكتفيا بالإشـارة في معجمه في مادة «الفضائية» والـزمانية» (158) إلى أنـه مازال بصـدد التفكير في كيفيـة إدراج هـاتين الوحـدتين في صلب نظريته انطلاقا من المعطيات المستفادة في نطاق أعمال علامية تهتم بمجـالات موصـولة بـالفضـاء بوجـه أو آخر كـدراسة وظيفـة المكان والأشياء القائمة فيه(159) أو «الحركة الجسدية»(160) أو دراسات جيرار جينيـت المختصة بهذا الموضوع. ومع ذلـك لا نعدم في دراسته التطبيقيـة الممتازة الخاصـة بموبسـان إشارات مـوصولـة

---

158) المعجم ص 133_ 359_ 387.
159) Proxémique
160) Kinésique

بوظيفة الزمـان والمكان في الأقصوصة المعنية بدرسه مركزاً بالنسبة إلى المدى الأول على الوحدات الوظيفية التالية: سابق/ لاحق، مـاض/ حـاضر، مستقبل/ ابتـدائي، ممتدّ/ مُنْتَهٍ/ (161). وفي المجـال الثاني وظف الـوحدات التـاليـة: قريب/ بعيـد/ منبسط/ مرتفع، طـويل/ عريض، منفتح/ منغلق، ضخم/ ضئيل، اضـافة الى استفـادتـه من مـلاحظـات بـروب في مجال انتقـال الشخصيـة الرئيسية من مكان الى آخر والمختصرة في الجدول التالي:

<table dir="rtl">
<tr><td rowspan="2">الفضاء الخارجي (162) ف 4</td><td colspan="3">فضاء الفعل (165)</td><td rowspan="2">فضاء خارجي (162) ف 4</td></tr>
<tr><td>ف 1 فضاء جانبي (164)</td><td>ف2 فضاء وهمي (163)</td><td>ف3 فضاء جانبي(164)</td></tr>
<tr><td rowspan="2">الحالة الأولى</td><td colspan="3">الانجازات</td><td rowspan="2">الحالة النهائية</td></tr>
<tr><td>انتقال
ب1</td><td>104
ب2</td><td>انتقال
ب3</td></tr>
</table>

فالعلامـات (ف1) (ف2) (ف3) (ف4)، وكذلك (ب1) (ب2) (ب3) تعيّن حدود الانتقال.

---

inchoatif / duratif/ terminatif(161

espace hétérotopique (162

espace utopique (163

espace paratopique (164

espace topique (165

والمقصـود بـالفضـاء الخارجـي فضـاء لا تجري فيـه الأحـداث الرئيسية. وعـادة ما يكون الموطن الذي ينطلق منـه «البطل» ويعود إليه في النهـاية. بينما ينقسم فضاء الفعل إلى صنفين يختلفان نـوعيا، أحـدهما يجري فيه الاختيـار المؤهل ويُسمّى «فضـاء جانبيـا»،وفي الآخر يجري الاختبـار الرئيسي، وعادة مـا يكون غير محدد وغـامضا، فمن ثم كانت تسميته بـ«فضاء وهمي».

كذلك من الموضوعات التي آثـرنا عدم الخوض في الجدل القائم بشأنها مـا يتصل بالمربـع الدلالي ومنطق تنظيم الـدلالـة. وقد أثـار بعض المختصين في المنطق، منهم بتيتــو في دراسـة عنـوانها «المربغ العلامي وشكلنـة النظام»(166)، قضـايا مـوصولـة بهذا الموضوع، واضعا مربع قـريماس موضع سؤال مشكّكا في سـلامته. بحكم أنه يُبسِّط النظـام الـدلالي وأنّه لا يـراعي الحالات المركبـة والمازجـة بين المتناقضات مقترحا تعديله بجعله شكلا ذا ثمانية اضلاع.

من الموضـوعـات التي لم نسهـب في تحليلهـا والتي تثير كـذلك جدلا متحمّسـا لتعقّدها مـوضوع الانتقـال (167) من مستوى إلى آخر. فالحكاية الـواحدة يمكن ان تتشكل في أجناس تعبيرية مختلفة كالقصة والمسرح والأقصوصـة والسينما والصور المتحركة، كما يمكن أن تـروى بلغات مختلفـة وتكتسي تبعا لـذلك دلالات حافـة تختلف بـاختـلاف اللغـة المؤديـة للحكـايـة. فما هي العمليـات الميسّرة

---

166) Petitot "carré sémiotique et schématisme de la structure" bulletin C.R.S.L.

167) conversion

لتشكلها على هذا النحو أو ذاك انطلاقا من «المستوى الإنّي الممثّل لجذع هيكلي مشترك والمنظَم للسردية قبل تشكّلها في مظهرها الخارجي مهما تكن أداة التعبير »(168)؟ وما هي الأسباب المنطقية الرابطة بين مستويات الدراسة جميعا والمتحكمة في الانتقال من أحدها إلى الآخر؟

فهذه قضايا ما زالت محل جدل ونقاش مُثيرَيْن. وليس من الميسور الخوض فيها في مجال دراسة تستهدف —أساسا— التعريف بالخطوط الكبرى لنظرية تستمدُ أصولها من «علم»، هو «علم الدلالة»، الّذي أضحى —مهما نكن وجاهة ما يوجه إليه من نقد كتكلّف العملية والإمعان في استنباط المصطلحات الصعبة —إجرائيا منبئا بتحوّل نوعيّ في استقراء المدى الدلالي للفعل السردي والفعل الخطابي عامة، ومن ثم للنشاط الإنساني في تعامله المظروف مكانيا وزمانيا مع محيطه. ولو لم يكن للدلالية إلا مزية إعادة الاعتبار للنصوص، وتجديد نظرتنا إليها، بإزاحة ما علق بها من ركام هائل من التأويلات التي انتهت في أحيان كثيرة إلى تعويض النص الأصلي النص الفعل، لاستحقّت أن تحظى بالاهتمام.

168) قريماس «في المعنى» ص 158.

6

من النّظريّة إلى التطبيق

يتميّز جهاز قريماس النظري - ولعنا لا نجازف إن أضفنا دون سائر النظريات السردية الحديثة - بطاقته الإجرائية الهامة. فهو من الاتّساع والقدرة على الاستيعاب بحيث يسوغ أن نوظّفه في دراسة نصوص متنوّعة تنوّع النصوص التي تملأ الساحة الثقافية، من نصوص فكرية، إلى تاريخية، إلى أسطورية، إلى قانونية، وحتّى «وصفات الطبخ»(1). وكما ألمعنا في معرض الدراسة (2) فالأنموذج العاملي ليس تصوّرا قبليّا جاهزا نسقطه دون دراية بآليانه على كلّ النصوص مهما تكن نوعيتها. إنما الدارس مدعوّ إلى انتخاب ما يراه منه وظيفيا صالحا لدراسة هذا النوع أو ذاك من النصوص وبوسعه أن يحقّق ذلك لثراء النظرية وطاقتها الفذّة على التوليد.

ولمّا كنّا ننشد في دراستنا الإلمام بأهم جوانب المنهج نظريّا وتطبيقيا، توفرنا على نصّ يحوي، فيما نعتقد، من الخاصيات ما يؤهلنا لبلوغ هذه الغاية في المستوى التطبيقي حريصين على الوفاء

---

1) لنا نماذج عدّة مجسدة لما ذكرناه في الكتاب الذي أشرف على جمعه قريماس وعنوانه (مدخل إلى تحليل الخطاب في العلوم الاجتماعية) "Introduction à l'analyse du discours en sciences sociales", Paris, Hachette, 1979

2) ص 75 - 76.

قدر المستطاع للأسس النظرية دون تعسف، آملين في الآن ذاته أن نسهم، وإن بحظ متواضع جدّا، في قراءة نصوص من التراث من وجهة تأخذ بأسباب النقد الحديث، لإيماننا بجدوى هذه التجربة.

ورغم اجتهادنا في التقيّد بما أفدنا من نظرية قريماس وبما يمليه علينا الوفاء لما أجرينا من مفاهيم وبسطنا من مصطلحات لمقتضيات منهجية وبيداغوجية بديهية، فإنّنا وظّفنا مصطلحات لم نعرض لها في الدراسة اضطرارا. والسبب في ذلك هو أنّ جهاز المصطلحات عند قريماس ثريّ ثراء تبوء معه كلّ محاولة لرصدها والإحاطة بها جميعا بالفشل. إلا أن ما يشفع لنا إجراءنا هو أنّنا أوردنا هذه المصطلحات في سياق واضح ييسّر فهمها ويهيء استيعاب دلالتها بمجرّد تمثّل الإطار المنتظمة فيه.

1) النـص:

«الأرانب والفيلة»

قـــال الغُرابُ: زَعمُوا أنّ أرْضًا منْ أراضي الفِيلة تَتابَعتْ عليها السِّنُـون وأجـدَبَتْ وقَلَّ مـاؤُها وغـارَتْ عيـونها وذَوَى نَبْتُهَـا ويَبِس شجـرُهَا. فأصـابَ الفيلةَ عَطَشٌ شـديدٌ، فشكـوْنَ ذلك إلى مَلِكِهِنَّ فأرْسَلَ الملكُ رُسُلَـهُ وَرُوَّادَهُ في طلبِ الماء في كلّ نَاحِيَـةٍ، فرَجَعَ إليـهِ بعضُ الرُّسُلِ فأخبَرَهُ أني قـدْ وَجَدْتُ بمكانِ كذا عيْنـا يُقالُ لها عيْنُ القَمَـرِ كثيرَةُ الماء .فتـوَجّـهَ مِلكُ الفِيلَــةِ بأصْحـابِـهِ إلى تلْك العيْن ليشرَبَ منْهَـا هـو وفيلته وكـانتِ العيْنُ في أرْضٍ لـلأرانب فـوَطِئْنَ الأرانب في أجْحَـــارِهِنَّ. فَأَهْلَكْنَ مِنْهُنَّ كَثِيراً، فَاجْتَمَعَتِ الأَرَانِبُ إلى ملكها فقلْـن لهُ: قدْ علمْـتَ ما أصـابَنَا منَ الْفيلـةِ. قالَ لِيُحْضِرْ منكُنَّ كلُّ ذي رأي رأْيَهُ. فتقدَّمَتْ أرْنَبٌ منَ الأرانِبِ يقالُ لها فيْرُوزُ.

وكانَ الملكُ يعْرِفُهَا بحسنِ الرَّأْيِ والأدبِ فقالـتْ: إنْ رأى الملكُ

انْ يَبْعَثَنِي إلى الفيلةِ ويُرْسِلَ معي أمِينا لِيَرَى ويسْمعَ ما أقولُ ويرْفَعهُ إلى الملِكِ. فقال لها الملِكُ: أنتِ أمينةٌ ونَرْضَى بقوْلِكِ فانْطَلِقي إلى الفيلةِ وبلّغي عنّي ما تُريدينَ، واْعلمي أنَّ الرّسولَ بِرَأيهِ وعقْلِه ولِينهِ وفضْلهِ يُخْبِرُ عنْ عقْلِ المُرْسِلِ، فعليْكِ باللّينِ وَالرِّفْقِ والحلم والتّأنّي فإنّ الرسولَ هو الذي يُلِينُ الصُّدورَ إذا رَفَقَ، ويُخَشّن الصّدُور إذا خرق. ثمّ إنَّ الأرْنب انطَلَقَتْ في ليلةٍ قمراءَ حتى انتهت إلى الفيَلةِ، وكَرِهَتْ أنْ تدْنُو منهنَّ مخافة أنْ يطأنها بأرْجُلِهِنَّ فيقْتُلْنَها وإنْ كنَّ غيرَ متعمِّداتٍ. فأشْرَفَتْ عَلى الجبَلِ ونَادَتْ ملِكَ الْفِيلَةِ وقالتْ له: إنَّ القمر أرْسَلَني إليْكَ والرّسولُ غيرُ ملومٍ فيما يُبلّغُ وإنْ اغلظ في القوْل. قال ملكُ الفيلَةِ: فَمَا الرّسالةُ؟ قالتْ: يقول لكَ إنهُ منْ عرفَ فضْلَ قوّتِه عَلى الضُّعفَاءِ فاْغْتَرَّ في شَأْنِ الأقْوِيَاءِ قِياساً لَهُمْ عَلى الضّعفَاءِ كانَتْ قُوّتُهُ وبالاً عليهِ، وأنتَ قدْ عرفتَ فضْلَ قوّتكَ على الدّوابِّ فغرّكَ ذلكَ فعمدتْ إلى العيْنِ التي تُسمى باسمي فشرِبْتَ منها وكَدَّرْتَها. فأرْسَلَني إليكَ فأنْذِرُكَ أن لا تعودَ إلى مِثْلِ ذلكَ، وأنكَ إنْ فعَلْتَ يُغشّي على بصَرِكَ ويُتْلِفُ نفْسكَ. وإنْ كنتَ في شكٍّ منْ رسالتي فهلُمَّ إلى العيْنِ منْ ساعتِكَ فإنّه مُوافيك بها. فعَجِبَ ملك الفيلة من قولِ الأرنب. فانطلقَ إلى العينِ معَ فَيْرُوزَ الرّسولِ، فلمّا نظرَ إليْها رأى ضوْءَ القمر فيها فقالتْ لهُ فيرُوزَ الرّسولُ: خذْ بخُرْطُومِكَ من الماءِ فاْغْسِلْ بهِ

وجْهَكَ و اسجُـدْ للقَمَـرِ. فأدْخَلَ الفيلُ خُـرْطُـومَـهُ في الماءِ فتحَـرَّكَ فخُيِّلَ إلى الفيلِ أنَّ القمـرَ اْرْتَعَدَ فقـالَ: ما شَأْنُ القمـر أرْتعدَ أتـرَاهُ غضِبَ منْ إدْخـالِي الخُرْطـومَ في الماء؟ قـالت فيروزُ الأرْنبُ: نعمْ. فسجَدَ الفيلُ للْقَمَرِ مرّةً أخْرَى وتابَ إليْهِ ممَّا صَنَعَ وَشَرَطَ أنْ لا يعُود إلى مثْلِ ذلك هو ولا أحدٌ منْ فيلَته.

2— تحليل النص:

يخضـــــع النصّ في شكله العام إلى بنية داخلية تقوم بين البداية والنهايـة على تحوّل من وضعيةِ اتصـال انعكاسي (conjonction reflexive) لذات فـاعلة (الفيلـة) موسـومة بـالقدرة في مستـوى الكفـاءة المادية بمـوضـوع قيّم، (هـو العين) افتكّته عَنْـوة من ذات حالية (sujet d'état) هي الأرانب الموسومـة في مستوى الكفاءة الماديـة بـالضعف، إلى وضعيـة انفصـال متعـدّ (Conjonction transitive) عن الموضـــوع بتحـــوّل الأرانب إلى ذات فــاعلــة، واسترجـاعهـا مـا سلبت إيّاه. وَتَــرَدُّدُ الـوضعيـة من الاتصـال إلى الانفصال (أو العكس) يعـدّ من المقوّمات الرّئيسيـة المؤسّسة لمفهوم الاختبار (Epreuve) وفق النموذج العاملي (-modèle actan ciel). على أن هـذا التحوّل من وضعيـة إلى أخرى تمّ على مـراحل سنعنى بضبط حـدودهـا. لكنّ على أيّ أسـاس واستنـادا إلى أيّ المقاييس؟

من الواضح أن النصّ المكتوب في صياغته المادية وطريقة تنظيمه إلى فقرات لا يصلح مرجعا للتقسيم على نحو حاسم. فبصرف النظر عن أن تنظيمه المادي هذا ليس من وضع مؤلف النصّ الحقيقي فإنّ النصّ عامة والأدبي بوجه خاص قائم على نسيج من النظم والمستويات المختلفة. وهو يحتمل تبعا لذلك عددا غير محدود نظريّا من أوجه التقسيم. وعلى هذا فكلّ تقسيم مهما تكن وجاهته لا يستقيم بالضرورة منهجا وحيدا ملزما لنا باتّباعه ذلك أنّه يعتمد هذا النظام تارة وذاك تارة أخرى.

كما لا يستقيم اعتماد المستوى الزماني معيارا للتقسيم لخلو النّص من إشارات تدلّ على صيرورة الأحداث في السياق الزمني. وليس حظّ النّص من الإشارات ذات المدى المكاني بأوفر من ذلك وإن أتاح لنا أن نعزل قسما أوّل استنادا إلى الإشارة التي تفيد بانتقال الفيلة من موطنها المألوف إلى موطن مجاور له طلبا للماء. ويتكوّن هذا القسم من جزئين سمينا كلّ واحد منهما «مقطعا»:

1 — من بداية النص إلى قوله «عطش شديد» ويتضمّن وصفا لحالة الموطن الذي تقيم فيه الفيلة.

2 — من «فَشَكَوْا» إلى «هو وفيلته» وموضوعه تذمّر الفيلة من سوء حالها والتماسها النصيحة من ملكها لإيجاد مخرج لها.

أمّا ما بقي من النصّ فنعتمد في تقسيمه تطوّر الحدث ومراحل صيرورته. ويقودنا اعتماد هذا المقياس إلى استخراج قسم ثان يمتدّ من «كانت العين» إلى «إذا خرق» ومحوره تشاور الأرانب فيما بينها في طريقة مواجهة الوضع الطارىء الناشىء عن ورود الفيلة العين

المنتمية إلى فضائها المألوف. ويتكوّن هذا القسم من مقطعين الأول من «وكانت العين» إلى «كثيرا» موضوعه ما أحدثه قدوم الفيلة أرض الأرانب ووطؤها أجحارها من افتقار في ذات هذه. والثاني الممتدّ إلى نهاية القسم المعنيّ يطلعنا على تهيّؤ الأرنب فيروز —بعد تلقّيها إذْنًا من ملكها— للقيام بإنجاز نقيض يهدف إلى محو الافتقار وإزالته.

أما القسم الأخير الذي يشمل بقية النصّ فيخصّ خطّة فيروز لصرف الفيلة عن العين وقد تمّت على مراحل أربع وسَمْنَاها كما يلي:

1 — الاستعانة بالمساعد

2 — الموضوع المؤهل

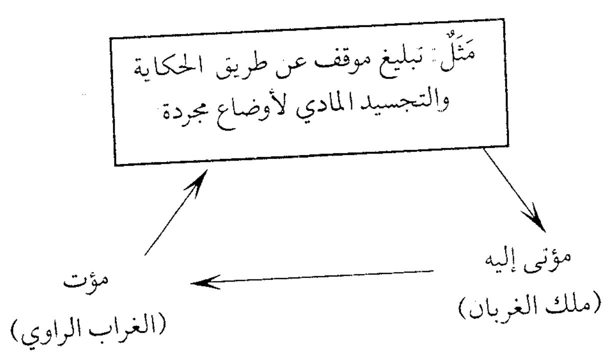
3 — الخطاب

4 — الجزاء

ولئن كان النصّ المدروس يجسّد في حدّ ذاته عالما مغلقا مكتفيا بذاته فإنّه موصول بسياق عرضي هو «باب الغربان والبوم» المضّمن بدوره في سياق أوسع هو كتاب «كليلة ودمنة». وما النصّ سوى حلقة مندرجة ضمن حلقات أخرى يرتبط بعضها ببعض ارتباطا جدليا ويحدّد بعضها من بعض مداها وعمقها. ما يهمّنا الإشارة إليه في مجال السياق المباشر الذي ورد فيه النصّ أن جماعة من البوم استبدّت بالغربان فتوجّه ملك الغربان إلى وزرائه ومُعِينيه داعيا إيّاهم أن يُشِيرُوا عليه ما يرَوْنه صالحا لمواجهة الوضع واتّقاء شرّ البوم فأشار عليه بعضهم بوجوب مُهادَنةِ العدو ودفع الفِدْيَةِ أو مغادرة المكان لأنّه لا قِبَلَ لهم بمقاومة خصوم يفوقونهم قوّة وبأسًا،

إلا أنّ أحد الغربان أبدى موقفا نقيضا مؤكدا أن المرء قد يبلغ بالحيلة ما لا يبلغه بالقوّة موصيا بالتوسّل بها نسجا على منوال الأرنب التي «زعمت للفيلة أنّ القمر وليها».

وهكذا يعدّ النصّ توسّعا في الفكرة وتجسيدا سرديا لها. وله بذلك مدى استقرائي بحكم أنّه ينطلق من الخاص ليبلغ العام وَيَعْرِضُ للجزئي المحسوس ليصل إلى الكلّي المجرّد. نلخّص عملية التبليغ في الرسم التالي:



بيان هذا الرسم أن ملك الغربان يتوجّه إلى غراب سائلا إيّاه رأيه فيما ينبغي القيام به لمواجهة الوضع. فيعبّر الغراب المعنيّ بالسؤال عن موقفه بطريق القصّ والحكاية أي بالتبعيد بينه وبين موقفه. إذ يعمد إلى خلق أحداث وشخصيات بعيدة عنه تفصح بطريقة غير مباشرة عن موقفه إيهاما بموضوعية هذا الموقف وواقعيته وسعيا إلى إقناع المؤتى إليه بجدواه ومنطقيته. وتُوسَمُ

عمليّة التبعيد هذه «بالوَكْل» (débrayage). أمّا المؤتى إليه (ملك الغربان) فهو مدعوّ إلى فكّ «سنن» الحكاية بمقتضى فعل تأويلي وإدراك غائيتها والموقف المعبّر عنه من خلالها. وهكذا يكتسي المثل طابعا جدليًا إذ يتردّد بين التجريد والتجسيد الماديّ. فهو ينطلق من وضع قائم ليختزله ويجرّده ثمّ ينقله إلى وضع واقعيّ آخر يشبهه أو يعادله وفي مرحلة ثانية يُعمد إلى تأويل الوضع المجسّد في المثل وتُسْقَط النتائج النظريّة المستخلصة على الوضع الأوّل المعنيّ بالوصف والتجاور.

المقطع الأوّل من القسم الأوّل: «زعموا ... عطش شديد» يطالعنا في مستهلّ النص ملفوظ وصفيّ يخصّ حالة فضاء مألوف للفيلة، لهُ بالفضاء المحيط به أفقيّا علاقة محتوى عليه بمحتو (englobé /englobant). ويتألّف الملفوظ من جمل خمس تتكوّن كلّ واحدة منها من فعل وفاعل مضاف إلى ضمير متّصل يعود على الموصوف «الأرض». وإذا استثنينا الاسمين الأوّلين فإنّ سائر الأسماء المضمّنة في الجمل المذكورة موسومة في مستوى المحور التقويمي (Système axiologique) بقيمة إيجابية : «ماء» و«عيون» و«نبت» و«شجر». ما يستخلص من السياق بداهة أن الحيّز الفضائي المألوف كان في مرحلة سابقة لزمن حدوث الجفاف في حال اتصال بالماء أي بالحياة (ماء ٨ أرض ٨ حياة) وأضحى في المرحلة الراهنة منفصلا عنه متّصلا بما يشبه الموت(ماء ٧ أرض٨ ± موت).

إلى هذا نفترض أن للقائم بفعل (acteur) خفيّ، نعتبره

السماء، وسنوضح لماذا، دورا غرضيّا (rôle thématique) يتمثّل في أنّه سالب إيّاها في حال الجود بالماء والعطاء، سالب إياها في حال الجفاف والإمساك ويتحدّد في كلتا الحالتين بقدرته على أن يكون (pouvoir être). وإذا كانت الشبكة الصورية المنظمة حول الأسماء تبرز منه دوره الغرض الإيجابي، فإن الشبكة الصورية المجسّدة في الأفعال تلخّص منها دورها الغرضي السلبي. ذلك أن تحليلا علاميّا سطحيّا لهذه الأفعال: «قلّ» و«ذوى» و«يبس» و«أجدب» و«غار» يقودنا إلى استخراج محور دلالي جامع لها مفاده الانتقال من الحياة إلى الموت (أو ما يشبه الموت) بالإيحاء بالنقصان حينا (وهو ما يستفاد من فعل «قلّ») وتردّي النوعية حينا آخر (ويستخلص ذلك من فعلي «ذوي» و«يبس») وبالجمع بين الصورتين وتوليد صورة جديدة مزيج منهما مرّة ثالثة (ويوحي بهذه الصورة فعلا «أجدب» و«غار»).

ويستوي الانتقال من وضع إلى وضع على محور زماني خطّي. فالماضي عطاء وحياة بينما الحاضر إمساك واقتراب ممتد على فترة تطول أو نقصر من الموت.

حياة ⟵ ± موت

وتختصر جماع الدلالات المستخرجة من الأفعال المعنية في المعانم التالية: فعل لازم (نحويا منعكس دلاليا + فتور بالنقصان كميّا أو تردّي النوعية) ± موت+مضيّ فترة + احباط (Dysphorie).

ونعود إلى ما سبق أن ألمعنا إليه في موضع سابق لنشير إلى أن

اسنـادنا دورا غـرضيا إلى السماء تحديـدا هو من قبيل تسمية الشيء مجازا. فمن المعروف بالفطرة أن السحـاب هو المصدر الرئيسي للماء الواهب للحياة. ومـا يعرف بداهة أيضا هو أن السحـاب قائم جهة السماء أي أنه يحتلّ في مستوى الخطّ العمودي موقعـا فوقيّا علـويّا. وإمساكه عن العطـاء يجعل منه على الصعيد العامليّ موتيـا ضديدا (anti-destinateur). وهكذا نخلص إلى تقديم فـرضية مفادها أن العلوّ يؤتي — عنـد الفيلة — الموت ويبعث البلاء، على أن يبيّن لنا السياق اللاحق صحّة هذه الفرضيّة أم بطلانها(1).

بقي أن نسوق في خـاتمة تحليلنا للمقطع الأوّل مـلاحظة هي أن وضعيـة الانفصال التي تطـالعنا في مستهلّ النصّ تفترض، وفق مـا يعـرف بـالحقيقة الـداخليـة المؤسّسـة للنص (veridiction)، أن تعقبها حالة نقيضة يعاد بمقتضاها التوازن ويرتق الخلل.

المقطع الثاني من القسم الأوّل: «فشكون.... هو وقبيلته»

ارتياد الفضاء المحيط: طرأ تحوّل جـوهريّ على نوعية العـلاقة

1 — نقرّ أنّ الفرضيّة المقدّمة لا تخلـو من شطط لكن ما أهاب بنا إلى بسطها هو أنّنا نجد في مواطن لاحقة ما يـدعمها. والمهم أن الفضاء يجسّد بعدا من أبعاد «كليلة ودمنة» ويقوم بـوظائف معيّنة. وهو ما لم ينتبه إليه في حدود معـرفتنا ناقدو الكتاب ويستجلـوا معالمه. فعلى سبيل المثال يطـالعنا الطائر في أمثـال كثيرة منها «القبّرة والفيلـة» و«الطائر فنـزرة» و«الحمامـة المطـوّقة» والنصّ المعنـي بدراستنـا. ويلاحـظ أن الطائر الذي يحلّ بحكـم قدرته على الطير في مـوقع علويّ يُـوفّق في أكثـر الحالات إن لم نقل في جميعهـا إلى التغلّب على خصـومـه. بينما تسنـد، إلى حيوانات أخرى كالزواحف الملاصقـة لأديم الأرض أو الحيوانات المائية، وظائف مخالفة. ولا نشكّ في أن لهذه الـوظائف جذورا تمتدّ إلى أعماق التصـوّرات الجماعيّة الميتولوجيّة

القائمة بين الفيلة من حيث هي ذات حالية وفضائها المألوف نتيجة ما أصابها من عطش.

وبعد أن كـانت العلاقـة بين الذات والموضـوع علاقـة اتّصال، أضحت بحكم الوضع الجديـد علاقـة انفصال. وإذا رمزنـا لعمليّة التحـوّل بحــرف (ت) وب(ف) للقـائم بفعل التحــويل وهـو في الـوضعية الـراهنة السماء وب (ف1) للـذات الحالية (وهي الفيلـة) وب «م» للموضـوع (وهو الفضاء المألـوف)، أمكننا صياغـة الوضع السابق لزمن حدوث الجفاف والراهن على نحو ما يلي:

ت(ف) ←[(ف $_1$ ٨ $_2$) ←(ف $_1$ ٨ م)] أو: ت(ف) ←[ف $_1$ ٨ م ٧ ف $_1$] ويعدّ الإقلاع عن العطاء من الوجهة العلامية هبة سلبية (don négatif) أحدثت خللا ذا مدى جسدى (وهو شدّة العطش). ويـؤول الافتقـار عادة إلى الـرغبـة في القيـام بمشروع نقيض (anti-programme) نتحوّل الذات بمقتضاه من حالية إلى فاعلة (sujet de faire). فإن أنجز هـذا المشروع وأفضى إلى جزاء (Sanction) إيجابي بتحقيق الطّلبـة زال الافتقـار وكان الانتشـاء (Euphorie) وإلاّ ظلّ الافتقار قائما وحـلّ الإحباط. واشتكاء الفيلة إلى ملكهـا تردّي أحوالها يندرج ضمن الثنائية إنجـاز/ فعل تأويلي، ويؤذن ذلك بالانتقال إلى مرحلة جديدة تقوم على السعي إلى محو الافتقار وسدّه.

نخلص إلى تحديـد المدى العلامي للذاتين العـاملتين: المشتكي (مجموعـة الفيلة) والمشتكى إليه (ملك الفيلـة). فنلاحظ أن التماس الطـرف الأوّل من الثـاني النصيحة يفترض أن العـلاقـة بينهما تنبني على عقـد يحرص بمقتضـاه الطرف الثـاني (المكـوّن من قـائم بفعل

واحـد) على خدمـة الطـرف الأوّل (المكوّن مـن قائمين بفعل كُثْـر) وضمان أمنـه متى وجد إلى ذلك سبيـلا، على أن يلتزم الطـرف الأوّل بالطـاعة والامتثال لما يمليـه الحاكم من أوامر ويُسْديـه من نصائح. لكن من ناحية أخرى يتعيّن، لكي تكون العلاقـة متوازية نوعيّا عند الحاكم، كفاءة (compétence) تؤهله لتبوّؤ مـركز القيادة. ويدلّ السياق على أن لهذه الكفاءة مدى معرفيّـا مكتسبا من التجربة. وإذا كانت الشكـوى الموجّهة من الأوفر عـددا والأدنى حظّا من المعـرفة إلى الأقل عددا والأسدى رأيا:

أ ← ب

قائمون بفعل كثْر / أدنى حظّا من المعرفة	أ	←	ب	قائم بفعل واحد / أسدى رأياً

موسومـةً بطابع «الالتماس»، فـالتـوصية الموجّهـة من الملك إلى الفيلـة تسلك اتّجاها عكسيّـا: (ب←أ) مكتسيـة طابع التفـويض (délégation). مـا أشـار بـه الملك على الفيلـة هـو أن تسعى في طلب الماء بارتيـاد الفضاء المحيط بفضـائها المألوف. ولا يطـول بنا الانتظار إذ يختصر جـزاء الانجاز في جملة واحدة قصيرة تفيـد بعثور بعض من أنفـذهم للبحث عن الماء على عين ممـا يؤذن بـرتق الخلل ومحو الافتقـار. ولا يفـوتنـا أن نشير إلى أن المشروع العملي المنجـز انعكاسي لأنّه تحقّق لفائدة الذات الفاعلة.

ت (ف$_1$) ← [ف$_1$ ٧ م ٨ ف$_1$]

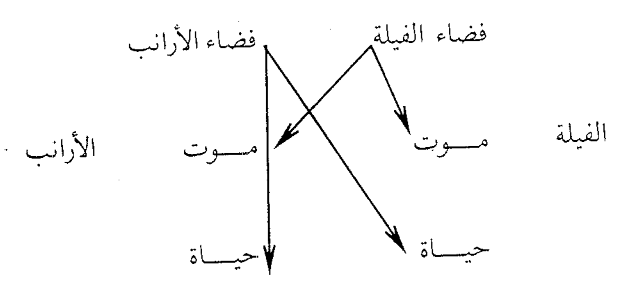
● المقطع الأوّل من القسم الثاني: و«كانت العين ... فأهلكن كثيرا»

- من ذات مفتقرة إلى مؤت ضديد:

اقترن القيام بالمشروع العملي السابق بمشروع ثانوي أنجز عرضا وبدون قصد. وذلـك عندما وطئت الفيلة أجحار أرانـب فَهَدَمَتْهَا، وأفنت عددا منها ويستدعى هذا الانجاز العرضي الذي سيكون له دور حـاسم في تغيير مجرى الأحداث جملـة من الملاحظات نجملهـا فيما يلي:

— أن الفضاء الخارجـي الذي ارتحلت إليـه الفيلة وأقامـت فيه هو فضاء الأرانب المألوف.

— أنّ للفيلـة في هــذا الفضـاء حيـاة. فيما يعــدّ تسلّل فضـاء الأرانب الخارجي إلى فضائها المألوف خرقا لهذا وموتا لها.



فضاء الفيلة المألوف
―――――――――
موت

فضاء الأرانب المألوف
―――――――――
حياة

- أن الطرفين يتنازعان - كما يتّضح من البيان المرسوم - فضاء واحدا تنهض فيه أسباب الحياة، هو فضاء الأرانب المألوف.

- أن إنجاز الفيلة الثانوي هو بالنسبة إلى الأرانب بمثابة هبة سلبية منحها إيّاها مؤتٍ ضديد هو الفيلة. ويتولّد منها شعور بالافتقار يستدعي بدوره ردّ فعل لسدّه وفق مبدإ التبادل (Echange).

- في مستوى المحور التقويمي يعدّ انجاز الفيلة المعنيّ سلبيا بحكم أنه خرق قيم العدالة المؤسسة نظريّا لعلاقة المجموعات «البشرية» بعضها ببعض. ولا يخلو مجرى الأحداث اللاحقة من أحد الاحتمالات التالية:

1- أن ترضى الأرانب بالوضعية الطارئة وتواصل حياتها في ظلّ خطر جاثم تحتمله في صبر وأناة.

2- أن تُقْنع المغتصب بوجوب مغادرة المكان حتّى تأمن شرّه.

3- أن تنتجع مكانا قصيّا طلبا للسلامة وحفاظا على حياتها.

4- أن تحمل الخَصْم - عَنْوة وإن أعوزتها القوّة بالجنوح إلى الحيلة- على التخلّي عن فضائها.

ولمّا كان الاختبار (Epreuve) أمرا حاصلا لا محالة، وجب أن نضبط - وإن في نظرة عاجلة - الوضعيات المحدّدة لكفاءة كلّ من الطرفين. فالفيلة تتميّز من حيث وضعيتها العلامية بما يلي:

- أنّها كائنات ضخمة الجثّة قويّة البنية قادرة ماديّا.

- أنّها مشبعة بالرغبة في الإقامة بمكان يضمن لها الارتواء.

- أنّها في وضع المسيطر غير الآبـه بقيم «العدالـة». علامـة هذه السيطرة والدال عليها علو قامتها بالقياس إلى الأرانب

أما الأرانب فتتخلّص وضعيتها كما يلي:

- أنّها صغيرة الجثة، ضعيفة البنية بالقياس إلى الفيلة.

- أنّها مريدة حـريصة على أمنها وسلامتها حِـرْصَ الفيلة وسائر الكائنات الحيّة على البقاء.

- أنّها في وضع المَسَيْطَـر عليه. وضـآلةُ حجمهـا يجعلها تحلّ في موضع المغلوب بالقوّة.

- أنّ شعوراً بالظلم يداخلها

وبـالجملة تنتظم وضعيـة كلا الطـرفين وفق الثنائيـات التاليـة: قـوّة/ ضعف + علـو/ انبسـاط +مسيطر/ مسيطـر عليـه + ظـالم/ مظلوم (فيما يتوفّر عند كليهما عامل الرغبة).

نستخلص استنـادا إلى مـا سبق أن احتمال إقـدام الأرانب على استعمال القوّ ة احتمال ضئيل بل مستحيل لعدم تكافؤ القوى. لكن إذا نحن تقدّمنا شـوطا في استقراء كتاب كليلة ودمنـة جملة، تبيّنا أن من القيم الثابتة التي ينطوي عليها أن المتمتّع بالقوّة المادية ليس هو بالضرورة المتغلّب في نهايـة المطاف. كما أن ضعيف البنية الجسـدية قد لا يخطئه التوفيق والظفر، إن كان على الأخذ بحقّه من المغتصب، حريصـا. وكان على حظّ أوفر من الخصـم من المعرفة والفطنـة. هذا يسلمنا إلى إدراج، ضمـن الثنائيـات المذكورة، ثنائيـة جديـدة تحتلّ منها مكانة هامّة، إن لم نقل مرتبة الصّدارة هذه الثنائية هي: جهل / معرفة. والخلاصة أنّ بؤرة الصراع تنتظم في محاور ثلاثة:

قوّة ≅ ظلم ≅ جهل : محور القيم المتدهورة
ضعف عدل معرفة محمور القيم السامية

موضوع النـزاع: تحدّد العين من النزاع المحتمل الوقوع موضوعه الرئيسي. ولمّا لم يكن بوسع إحدى المجموعتين — حسب ما يدلّ عليه السياق— الاستغناء عنه أو استبداله بموضوع آخر نظير له من حيث الأهمية، جاز عدّه موضوعا ذا قيمة غير قابل للاشتراك فيه (objet non participatif).

وفي ظنّنا أن تعيين المتلفّظ العين باسمها — والحال أنّه نادرا ما يعمد إلى ذلك— ليس من قبيل الترف أو التحلية البريئة كما سيتجلّى من تحليلنا التالي. فالاسم المعنيّ يتكوّن من لفظمين (lexème) هما «العين» و «قمر» — يرتبط أحدهما بالآخر بالإضافة الدالة في هذا السياق على الانتماء والملكيّة (ملكية القمر للعين). وللعين دلالات متعدّدة نقف منها على المفهوم المعني في النصّ، وهو عين الماء المكوّنة من المعانم التالية: ثقب غائر في الأرض+ شكل دائري أو شبه دائري+ يصدر منها الماء+ موسومة بقيمة ايجابية لأنها واهبة للحياة. أما لفظم «القمر» فيتألّف من معانم أهمّها أنه: كائن في موقع علوي+ دائري الشكل+ مضيء+ يُرَى في الليل. واعتمادا على ما كنّا افترضناه، من أن الموقع العلوي يتحدّد بقدرته على أن يكون أي على الإيذاء وإيتاء البلاء إن شاء، أمكن أن نضيف معنم «إحباط». والحاصل أن اسم العين يشتمل على محورين دلاليين متناقضين ومتلازمين بحكم الإضافة وهما: حياة وموت. ونؤسس هذه الثنائية، كما سيتّضح، بنية الخطّة

المعتمدة لإقصاء الفيلة وإبعادها عن هذا الفضاء.

● **المقطع الثاني من القسم الثاني**: «فاجتمعت.... إذا خرق»

ملك الأرانب: تنتظم بين الأرانب وملكها علاقة موازية للعلاقة القائمة بين الفيلة وملكها. فهي تعود إليه في ما حزب من أمر، وتلتمس منه النصيحة. وهو يوجّهها وفق ما تمليه عليه مصلحتها ويرجع إليها بالنفع. ومع ذلك لا يخلو العقد المنظم لعلاقة طرفي كلتا المجموعتين من اختلاف نوعي. ففيما تدلّ قرائن من النصّ على أن العقد المنظّم للعلاقة بين الفيلة وملكها موسوم بطابع «الفردية» (contrat individué) يتبوّأ بحكمه الملك مركز الآمر المتفرّد بالرأي، يكتسي العقد الجامع بين الأرانب وملكها ميسم «العقد الشوري التفاوضي». آية ذلك أن الملك لم يبتّ في الأمر بمفرده، عندما تقدّمت إليه الأرانب تسأله رأيه، إنّما أهاب أن تُدْلِيَ بموقفها وتشير عليه بما تراه صالحا. فانبرت إحدى الأرانب واسمها فيروز مبدية رغبتها في أن يسمح الملك لها بالتصرف حسب ما يمليه عليها اجتهادها فأجابها الملك إلى سؤلها وفوّض المسؤولية إليها.

وهكذا يسلك الانجاز / الفعل التأويليّ اتّجاهات متعاكسة يلخّص الجدول التالي بعض وجوهها.

المؤتى إليه		المؤتي
أرانب	←	ملك (انجاز : التماس)
ملك	←	أرانب (فعل تأويلي: استشارة)
فيروز	←	ملك (نجاز = التماس+ فعل اقناعي (faire persuasif)
فيروز	→	ملك (فعل تأويلي: استجابة وتفويض)

أهمّ دور غرضي يضطلع بـه ملك الأرانب هو الانصـال الوثيق ب«المحكومين» والحرص على مصلحتهم واستشـارتهم في ما يهمّهم من شـؤون. ويشفع هـذا الـدور ذو القيمـة الإيجابيـة في المستـوى التقويمي بدورين غرضيين موصولين به ومتفرّعين منه. الأوّل ينتظم حول شبكـة صورية قوامهـا الخبرة والمعرفة بما يتمتّع بـه بعض أفراد مجمـوعته من رويـة وتبّصر ومنحه هـؤلاء ثقته، آيـة ذلك استجابتـه لعرض فيروز المذكـور دون أن يسألها عمّا تعتزم القيام بـه أو أن ينفذ صحبتها رقيبا وشاهدا على ما تقوم به وتقوله.

أما الثاني فيخصّ أسلـوب تعامله مع المجموعـات المجاورة له. وينبني هذا الـدور على شبكة صـورية تجمع معـانم المسالمة والحِلْم والانضباط والروية وما يندرج ضمنها من القيم الدالة على الفضيلة في مفهومها الواسع.

ولنا أن نتساءل هل أن جنوحه إلى اللين والمهادنة مرده إلى أنّه في وضعية المسيطـر عليه الضعيف العـاجز عن مـواجهة خصم يفـوقه قوّة فيكون نصرّفه من قبيل الخداع (ظاهر+ لا باطن ← ظ+بَ) أم انّـه يظهر مـا يبطن حقّـا فيحتل مرتبـة الصـدق من مربّع الحقيقـة العلامي:

كذب		صـدق		سرّ
	ظاهر (ظ) لا باطن (بَ)		باطـن (ب) لا ظاهر (ظَ)	
		باطـل		

إن استقراء سريعا للكتاب يفيد بأن القيم المذكورة على لسان ملك الأرانب تستوي في محلّ رفيع من سلّم القيم المضمّنة فيه. لذا نفترض افتراضا شبيها باليقين أن ملك الأرانب يتكلّم من موقع صدق.

فيما يخصّ دور الأرانب العاملي (rôle actanciel)، ما يستخلص في حدود المقطع المعنيّ، أنّها ذات فاعلة مفوّضة من المؤتي (الملك)، ومن حيث كفاءتها يستفاد من قرائن من النصّ خاصّة منها تلك التي تفيد بأنها تحظى بتقدير أصحابها واحترامهم لسداد رأيها أنّها عارفة. كما أن السياق نفسه يدلّ على أنّها مريدة. آية ذلك أنّها عرضت أن تقوم بالمهمّة بمفردها. وهكذا تتلخّص كفاءتها في المواطن التالية:

معرفة + إرادة + وجوب الفعل

وسيبيّن لنا السياق اللاحق كيفية توظيفها المعرفة لتعويض ما تفتقر إليه من قدرة مادية خدمة لمصلحة الجميع ووصولا لتحقيق الهدف المقصود وهو صرف الفيلة عن فضائها المألوف. وإذا رمزنا للأرنب الفاعلة بحرف (ف3) ولمجموعة الأرانب بحرف (ف2) وللفيلة بـ (ف)، أمكننا اختصار المشروع الذي تتهيّأ فيروز للقيام به في الصياغة البيانية التالية:

ت (ف 3) ⟵ [(ف2 ∨ م) ← (ف 2 ∧ م)]

[ف1 ∧ م) ← (ف1 ∨ م)]

⟵ [(ف2 ∨ ف1) ← (ف1 ∧ م ∨ ف1)]

ولا يفوتنا أن نشير في خاتمة تحليلنا المقطع المعنيّ إلى أن الأرنب

فيروز تبدو كيانا بلا ظاهر (ب+ظ). وعلى هذا فهي تحتلّ من مربّع المصداقية العلاميّ مرتبة السرّ.

● المقطع الأوّل من القسم الثالث: «ثمّ أن الأرانب... انتهت إلى الفيلة»

— الاستعانة بالمساعد (adjuvant)

يفيدنا هذا المقطع بأن الأرنب شرعت في تنفيذ خطّتها في ليلة مقمرة. وليس من الواضح فيما ينطق به النصّ أَحَصُلَ هذا اتّفاقا، وعلى سبيل المصادفة المحض فلا تتعدّى دلالة الملفوظ إذّاك على التعريف بالظرف الزمني الذي لاَبَسَ تنفيذ المشروع وربّما أكسب الحدث إضافة إلى ذلك مدى واقعيّا وزاد في الإيهام به، أم أن فيروز تعمّدت الخروج في ذلك الوقت بالتحديد تطبيقا لخطّة معدّة مسبّقا مقصودة: والسياق اللاحق يثبت أنّها أتت فعلها عن عمد إذ سيكون للقمر والضوء الصادر عنه دور المساعد في إنجاز المشروع وتحقيق الطَّلبة. وبذلك يكتسي المقطع مدى يتجاوز مجرّد الإشارة العرضيّة العابرة ليوصل لكفاءة الأرنب المعرفية.

ولعلّه من المفيد أن نتعرّف عون البث بالنسبة إلى هذا المقطع. فمن الجليّ أن المتلفّظ به يظهر متجرّدا ناقلا للخبر بموضوعية وأمانة. إلا أنّ مزيدا من التمعُّنِ فيه يتيح لنا كشف باث آخر خفيّ مقنع، وهو المنّظم لحقيقة النصّ الداخلية ولقيمه الباطنة.

● المقطع الثاني من القسم الثالث: «وكرهت .... الجبل»

الموضوع المؤهّل:

تعمّدت الأرنب، في المرحلـة الثانيـة من تنفيذهـا الخطّة ،تسلّق الجبل والإشراف منه على الفيلـة خشية أن تدوسهـا — فيما يصرّح به النص— أقـدام الفيلـة ،وإن عن غير عمـد إنْ هي اقتربت منهـا. وبـذلك يـربط المتلفّـظ بين الإنجـار (تجنّب الاقتراب من الفيلـة) والفعل التأويلي (الخوف من أن تطأهـا الفيلة) ربطا عليّـا. هذا يبرز ذاك ويقتضيه. لكن إن نحن حـاولنا النفاذ إلى ما وراء الظـاهر تبيّنا دلالات غير صريحة. ولنتذكر في هـذا الصدد ما كنّا قـدّمناه افتراضا من أن العلـو يتحـدّد بقـدرتـه على أن يكـون، أي على إيتـاء الأذى وبعث البـلاء والموت إن رام. وإشراف الأرنب من قمّـة جبل على الفيلـة يكسبهـا قـدرة مـا كانت لتكتسبهـا —أو كـان يعزّ عليهـا ذلك— في وضع آخـر ويـؤهلهـا من ثمّ لمخـاطبـة الملك —كما سيتّضح— من مـوقع المسيطـر (أو المفـوّض عن المسيطـر) المنـذر بحلول البـلاء. ويلخّص لنا الجدول التـالي وضعية كـلا الطرفين في المرحلة السابقة:

	علو (قدرة على الكينونة قوّة وحياة)	دنو (عدم قدرة ضعف وموت)	قدرة البنية الجسدية	ضعف البنية
I				
الأرانـــب	-	+	-	+
الفيلـــة	+	-	+	-
II				
الأرنب فيروز	+	-	-	+
الفيلـــة	-	+	+	-

● المقطع الثالث من القسم الثالث: «ونادت..... فإنّه موافيك بها»

الخطاب:

أ‌ــ ملابسـات الخطاب: تطلعنا الـدراسات المختصّـة في حقل التلفّظ أن للملابسات الحافـة بعمليّة التلفّظ دورا حاسما في تكييف صيغـة البـلاغ. فهـذا لا يفهم فهما عميقـا إلاّ في ضـوء تلك وعلى أساسهـا. ما يهمّنا في مجال تحليل مـلابسات الخطـاب المعنيّ هو أن نتعـرف وضعية كلّ من المتخـاطبين من حيث الكفاءة كما يـوهم بها ويفهمها هذا الطرف أو ذاك. وقد ذكـرنا في موضع سابق أنّ الحلول في موقع علويّ مـوضوع مؤهل يكسب صاحبه قـدرة. وهذا ما يفسر استعمال فيروز في مخاطبتها ملك الفيلـة لهجة تتصف بـالحدّة، لهجة من يمتلك السلطـة أو يأنسهـا في نفسـه أو يتصنّعهـا. ولنـاقـد أن يلاحظ معترضـا. لكن الأرنب التمست لنفسها العذر مـوضّحة أنّها رسول ناقل رسـالة متوخّية، في مستهلّ خطـابها أسلوب اللّين. وردّنا أن هذا الأسلوب فـرضته أيضا ملابسات الخطـاب. فالأرنب تدرك أنّ الفيل يحتقرها لضآلة حجمهـا. لذا وجب الجنوح إلى اللين تمهيدا للتعـريف بهويتها ضمن خطّـة مـدروسة. تقـول فيروز في تعريفهـا لهويتها أنّها مـرسلة من القمـر. معنى هذا عـلاميّا أنّها تـدّعي القيام بدور عـاملي هو أنّها فـاعل مفوّض (sujet délégué) من مؤتٍ ضديد يفترض أنه يمتلك القدرة بحكم علوّ موقعه.

أمـا مضمـون الطلب فيتلخّص في إصدار المؤتى الضـديـد أي القمـر أمـرا يقضي بأن تخلّي الفيلة مـوطن الأرانب ويشفع بتهـديـد

صارم مفاده أن عصيان أمره يؤول إلى إنزال العقاب وإلحاق الأذى بها. وتنهي الأرنب خطابها للملك بدعوته إلى التثبت من صحّة ما تقول استدراجا له لتصديقها وإمعانا في المغالطة والخداع أي الإقناع ببراءة المفوّض وصدقه.

- التلاعب بين الظاهر والباطن (الفعل الإقناعي)

يتّضح من مضمون خطاب الأرنب وأسلوبه أنّها تدّعي ما ليست هي. أي أنّها انتحلت لنفسها دورا عامليا زورا وخداعا. وعلى هذا فهي ظاهر وليست باطنا (ظ+ب). تنتصب في حُكم مربّع المصداقية العلامي في مرتبة الكذب بعد أن كانت تحلّ في مرتبة سابقة في مرتبة السرّ (ظ̄ + ب). ولنا أن نتساءل هل الكذب مباح في حكم الحقيقة المؤسّسة للنصّ في جوهره؟ وما هو موقف المتلفّظ الخفّي المنظّم لهذه الحقيقة منها؟ تتبادر إلى الذهن إجابة أولى هي أنّ الكذب من القيم المتدهورة المرفوضة في النصّ. لكنّنا نسارع فنضيف أنّه يصبح مشروعا في حالات خاصّة. من ذلك أن الضعيف المغلوب على أمره إن لم يجد بدًّا لرفع الظلم عنه والأخذ بحقّه من المتسلّط الظالم من التَحَوُّلِ بالخدعة والكذب جاز له ذلك ولم يُعَدّ خرقا للقيم السّوية التي يدعو النصّ إلى الأخذ بها لتستقيم حياة المرء وتصلح. بل ينطوي النصّ على دعوة صريحة حينا وضمنية حينا آخر إلى الجنوح إلى الحيلة في مثل هذه الظروف القصوى وإلى توظيف المعرفة لخداع القوِيّ المتسلّط واسترْجاع الحق المغتصب منه. ولمّا كانت فيروز، ومن خلالها مجموعة الأرانب، في

وضعية المغلوب على الذي افتكّ حقّه منه عنوة وبالباطل، كان من المشروع، بل الواجب أن تعمد إلى الحيلة لاسترداده.

● المقطع الرابع من القسم الثالث: من «يتعجب» إلى نهاية النص:

- الفعل التأويلي والجزاء: يعتبر الخطاب الموجّه إلى ملك الفيلة فعل كلام يقصد به الإقناع بوجوب الإمتثال للأوامر الصادرة من المؤتي الضديد ضمن مفهوم المناورة. ولا يخلو ردّ الملك التأويلي من أحد الاحتمالين التاليين: إمّا أن يصدّق قولها وإمّا يرفضه. فإن صدّق فهو مدعوّ إلى التصرّف وفق ما يمليه عليه صاحب البلاغ من أوامر، أو رفض ذلك في الحالة الأولى هو ممتثل مطيع، وهذا ما ترجوه الأرنب وتأمله ؛وعاص متمرّد في الحالة الثانية وهو ما تخشاه وترغب عنه لأنّه يبطل خطّتها ويحبطها.

لقد دعت فيروز ملك الفيلة في خاتمة خطابها إلى أن يصطحبها إلى العين كي يتثبّت بنفسه ويتبيّن صحّة ما تقول. وقبول الملك مبدأ التثبّت يدلّ على أنّه انخدع بكلام الأرنب وحسبها صادقة. وعلى هذا يكون جهله مساعدا لها وعونا على تنفيذ الخطّة وفق النهج المرسوم.

بقي - لكي تتمّ الخطّة بنجاح- أن تهتدي الأرنب إلى حيلة تُقيم بها الدليل على صحّة ما تقول. وسيتّضح مرّة أخرى أن معرفتها من ناحية وجهل ملك الفيلة من ناحية أخرى كانا عونا لها على الخلاص من البلاء المحيق والظفر بالنجاة. فكما انتحلت لنفسها ما ليست هي، متلاعبة بين الظاهر والباطن، موظّفة معرفتها بذكاء،

كذلك عمـدت إلى التلاعب بحقـائق الطبيعة وتمويهها. بيان ذلك أنّها دعت ملك الفيلـة إلى أن يـدخل خرطـومـه في ماء العين الـذي تنعكس على صفحتـه صورة القمـر المضيء مدركـة أنّ تحريكه الماء بخرطـومه يسبّب - بمقتضى عملية فيـزيائية آلية- إربـاك الصورة. فيرتاع الملك لذلك ظنّا منه أنّ القمـر ارتعد غضبا. وهو ما سبق أن أوهمتـه بـه قـولا. وبمشـاهـدتـه فعـلا - والمشـاهـدة أسمى آيـات البرهان- يداخلـه يقين بصحّة ما أخبرته به الأرنب. وهـو ما حدث فعلا. وكـان لها ما أرادت إذ تعهّـد الملك بألاّ يعود هـو ولا فيلته إلى العين ثانية.

النتيجـة أن المعرفـة - معرفـة عن كيان الآخـر (savoir sur l'être) ومعرفة بحقائق الطبيعة - أسعفت الأرنب بالقدرة وأهّلتها لتحقيق ما لم يكن بوسعها أن تحقّقه لولاها.

الحصيلة في مستوى بنية النّص السطحية.

طـالَعَنـا في النصّ عددٌ من القائمين بفعل، أهمّهم: ملك الفيلة وملك الأرانب وفيروز. وننتظم بين بعض هـؤلاء وبعض عـلاقـات حاولنـا في معرض شرحنـا النصّ استجلاءهـا وإبراز مقـوّماتها. ولمّا كـان لكلّ قـائم بفعل دور غـرضي أو أكثر، أي أنّـه يحقّق شبكـات صورية وعلى امتداد جميع المشـاريع العملية ،أو في بعضها، رأينا من المفيد حصر هذه الأدوار الغرضية وما يوافقها من مشاريع في جدول جامع:

المشاريع العملية	ملك الفيلة	ملك الأرانب	فـيروز
مشروع (1): شكـوى الفيلة إلى الملك حاثها	- ناصح - حـريص على مصلحة رعيته		
مشروع (2): تـوجـه الفيلـة إلى العين وإهـلاكها عـددا من الأرانب	- ظالم - معتد على فضاء غيره	- معتدى عليه وعلى رعيته - عاجز عن المقاومة	
مشروع (3): استشـارة ملك الأرانب "رعيتـه" وعـرض فيروز القيـام بمهمـة لـدى الفيلـة لصرفها عن العين		- يعـامل أعـوانـه ورعيته برفق - مسـالم في عـلاقتـه بالآخر	- مبدية استعـدادها لخدمة المجموعة
مشروع (4): تنفيـذ فيروز خطّتها	- غبي - جاهل - مطيع		- عارفة - ذكيّة

الأقطاب الدلالية (isotopies):

تخترق النص مجموعـة أو مجموعـات من المعانم يتعـالق بعضها مع بعض، ويتـولّـد بعضهـا من بعض، ويحيل بعضهـا على بعض، مكسبـة النصّ — بهذا النسق من التـواتـر— اتّسـاقـا ووحـدة مع

التنويع. نطلق على هذه المجموعة من المعـانـم المتآلفة، والمبثوثة على امتـداد النصّ أو جــزء منـه، تسميـة «القطـب الـدلالي». وتعكس الأقطـاب من النصّ بنيتـه الـداخليـة العميقـة المؤسّسـة لتركيبتـه النحوية التي تتجلّى على السطح، والتي حـاولنا في الجزء السابق من تحليلنا بسطها والكشف عن شبكاتها في النصّ المعني بالدرس.

من الصـور التي طـالعتنا في معـرض تحليلنـا النصّ مـا يأتلف حـول نـواة دلاليـة مشتركـة هي الفضـاء في مـداه الطبيعي (فضـاء مألـوف/ فضاء خـارجي - فضـاء علـوي - فضاء مسطّح) (قمّـة الجبل/ سفح الجبل - القمـر/ العين). ويتراوح هـذا الفضـاء من حيث وظيفته بين فضـاء ينذر بالموت، هـو الفضاء العلوي بـالنسبة إلى الفيلـة، والفضـاء الخارجي بـالنسبـة إلى الأرانب، وفضـاء يمنح الحيـاة هو فضـاء الأرانب المألـوف بـالنسبـة إلى كلتا المجمـوعتين، إضـافـة إلى الفضـاء العلـوي بـالنسبـة إلى الأرانب التي أحسنت توظيفه.

كذلك طـالعتنا صور تنتظم حـول الثنائيات التـالية: عطش / ارتواء - قـوّة البنية الجسـدية/ ضعفها - خـوف الأرانب من الهلاك تحت أقـدام الفيلـة/ خوف ملك الفيلـة من أن يتلف القمـر عينيـه ويهلكـه. وتلتقي هـذه الصـور جميعـا حـول قطب دلاليّ لـه مـدى جسدي (سلامـة الجسد/ هلاك الجسد). ويتفـرّع هذا القطب عن قطب دلالي أرقى، هـو نـزاع البقـاء والصراع ابتغاء ضمان سـلامـة الجسد وانتفاء التلف. ومن أهمّ الأقطاب الدلالية المضمّنة في النصّ في مستوى آخر تلك المتّصلة بعلاقات الشخصيات بعضها ببعض.

وعن هذا القطب الرئيسي ينشأ قطبان فرعيان: للأول دلالة سياسية ودلالة اجتماعية أخلاقية للثاني. وينقسم الأوّل بدوره ضربين: داخلي وخارجي. يهمّ الضرب الأوّل نوعية العلاقة القائمة بين الراعي والرعيّة والسّمة الدلالية المطردة والمميّزة لعلاقات الأطراف الحاكمة والمحكومة في كلتا المجموعتين الاتّصال والتواصل.

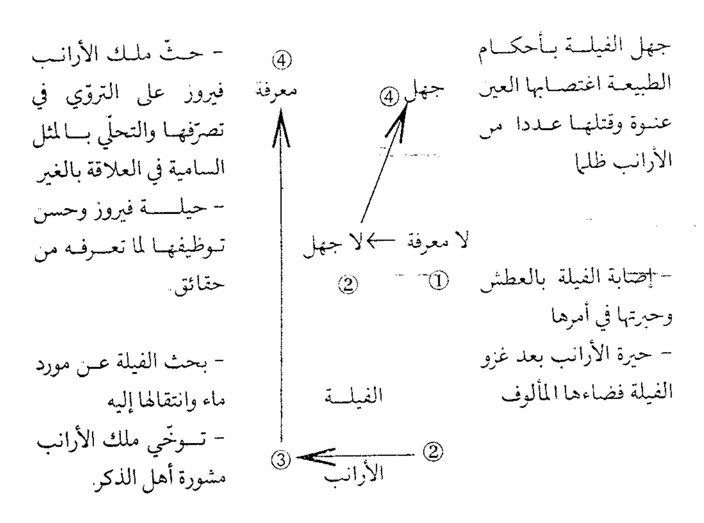
أمّا الضرب الثاني فيخصّ علاقات المجموعات المنتمية إلى فصائل متباينة. ويختلف موقف مجموعة من الأخرى اختلافا بيّنا. فإذا عالجنا موقف الفيلة من الأرانب، لاحظنا أنه يتأسّس على نظرة احتقار واستعلاء بحكم عدم وجود مصلحة مشتركة تجمعها بها علاوة على أنّها لا تخشى منها ردّا يزعجها لعدم تكافؤ القوى. وعلى هذا فعلاقتها بها علاقة «لا اتّصال». وليست كذلك نظرة الأرانب إلى الفيلة ولا كذلك موقفها منها. فمع أن الفيلة منحتها هبة سلبية تمثّلت في هدمها أجحارها واهلاكها عددا منها واغتصاب العين عنوة، فإنّ السياق يدلّ على أنّ ملك الأرانب، المجسّد لضمير الجماعة واختيارها «السياسي» ،لا يضمر حقدا للفيلة ولا يروم الانتقام منها أو الحاق الأذى بها إنّما هَمُّهُ اتقاء شرّها مع الحرص على إرساء علاقات صداقة مخلصة. وعلى هذا فموقف الأرانب من الفيلة أقرب إلى الاتّصال منه إلى الانفصال.

وهذا النمط مِنَ السلوك المنبني على محبّة «الآخر» يسلمنا إلى القطب الدلالي الاجتماعي المندرج ضمن محور علاقات الشخصيات بعضها ببعض. ويستقرأ القطب المذكور أساسا من

خطاب ملك الأرانب الموجّه إلى الأرنب فيروز. ولئن كان المقصود بهذا الخطاب إسداء النصيحة إلى فيروز التي تستعدّ للاتصال بالفيلة حتّى توفّق في مهمّتها، فإنّه يحوي من الدلالات ما يجعله يتجاوز السياق العرضيّ الظرفي ليوصل بالقيم الأصيلة المؤسسة للنصّ من جوهره. وتأتلف جماع المعانم المكوّنة لهذا القطب الدلالي من الثنائيات التالية: توخّي الانضباط/ تجنّب التّسرع — الحلم / الجهل — المروءة/ الأنانية— الرفق/ العنف. ويمكن اختصار هذه الثنائيات في ثنائية واحدة جامعة لها هي التحلّي بالفضيلة/ التحرّر من الرذيلة. والغاية من ذلك دفع الضرر وجلب المنفعة. مما يفضي إلى تحقيق السعادة: سعادة الفرد وسعادة الجماعة.

محور دلالي آخر يخرق المحاور الدلالية المذكورة ويضمّها وهو التردّد بين الحيواني والإنسانيّ. فكلّ ما يدل على تنازع البقاء ويؤمن به يحيل على عالم الحيوان. أما ما يتصل بكيفية تنظيم الحياة وتسيير شؤونها وصولا إلى تأسيس عالم يسوده العدل وتحكمه الفضيلة والمثل العليا فهو يعكس رؤى الإنسان. وما هذا التردّد بين المرجعين، وجعل أحدهما يحيل على الآخر، سوى تحفظ التوازن وتضمن الاستقرار في تعادلية مطلقة.

نخلص في نهاية التحليل إلى تحديد الثنائية الرئيسية المولّدة للنصّ، والجامعة للثنائيات الدلالية بمختلف تفرّعاتها. وفي ظنّنا أن النصّ ينبني في جوهره على الثنائية التالية: معرفة/ جهل. فالمرء ينال حظا من السعادة بمقدار ما يصيب من المعرفة. وإذا أسقطنا هذه الثنائية على المربّع العلامي أمكننا استخلاص النتائج المبيّنة في الرسم التالي:



تتجلّى الفيلة في المشروع الأوّل غير عارفة بكيفيـة معالجة الوضع المتأزّم الحاصل بسبب الجفـاف وبتوفّقهـا في العثـور على مورد مـاء. نتبيّن أنّها تتصرّف وفق مـا يمليـه الموقف وتستـوي بـذلك في محور اللاجهل. إلا أنّنا نكتشـف في المرحلة التـاليـة (المناسبـة للمشروع الثـاني والرابع) جهل الفيلـة بـالقيم الأخلاقيـة النبيلـة من ناحيـة، وبالأسس المعرفية الطبيعية من ناحية أخرى.

أمّـا الأرانب فتنكشف على امتداد النصّ على نحو آخر. فهي في المشروع الثـاني و إلى حدود الثـالث تبـدو مأزومـة لا تعـرف طريقـة تكفل لها تجاوز الوضع. ثمّ نطالعنـا — مجسّدة في خطاب ملكها في نهايـة المشروع الثـالث— متشبّثة بـالقيم الأخـلاقيـة النبيلة عـارفـة

بأصـول التعامل السليـم مع «الآخر». ويتأكّـد عنصر المعـرفة عنـد الأرانب في المشروع الرابع في صورة أخـرى وذلك أنّها تحسن توظيف ما تعرف من حقائق للايقاع بالخصم واتقاء شرّه.

الخاتمـة:

هكذا يتّضح أنّ فعل القصّ الذي يعمـد إليه الغراب يستهدف تحقيق غـاية معيّنـة تقوم على الاستـدلال بالمثـال الحيّ على إمكانيّـة تغلّب الضعيف على القـويّ إن صحّ منـه العـزم وتوسّـل بالمعـرفـة موظّفـا إيّاهـا بحذق وكفـاءة. ومن الميسور أن نستشفّ مـن خلال النصّ حضورا خفيّـا لكن فاعلا للمـؤلّف. وكما أنّ فعل القصّ عند الغراب ليس بـريئا، كذلك فعـل القصّ المجسّد في الكتابـة والمُوَلِّدِ لكتاب «كليلـة ودمنة» ليـس مجانيّا. ولعلّنـا لا نحتاج إلى نفـاذ رؤْية لنتبيّن —من خـلال الفيلـة— صـورة الحاكم المتسلّط الطـاغيـة. والأرجح أن المعنيّ هـو أبـو العبّاس أو أبـو جعفـر المنصور الـذي يتهـدّده مصير شبيه بمصير الفيلـة، مصير يؤول إليـه كلّ من أسّس حكمه على «الظلم»، خـارقا بـذلك العقد المنظّم لعـلاقات الحاكم بالمحكومين، محدثا تصدّعاً في توازن الكون المحكوم بقواعد أزليّة.



المحتوى

1 – مشكلية الدراسة 5
2 – علم الدلالة 19
3 – المستوى السطحي 33
4 – المستوى العميق 85
5 – الخاتمة 101
6 – من النظرية إلى التطبيق 107